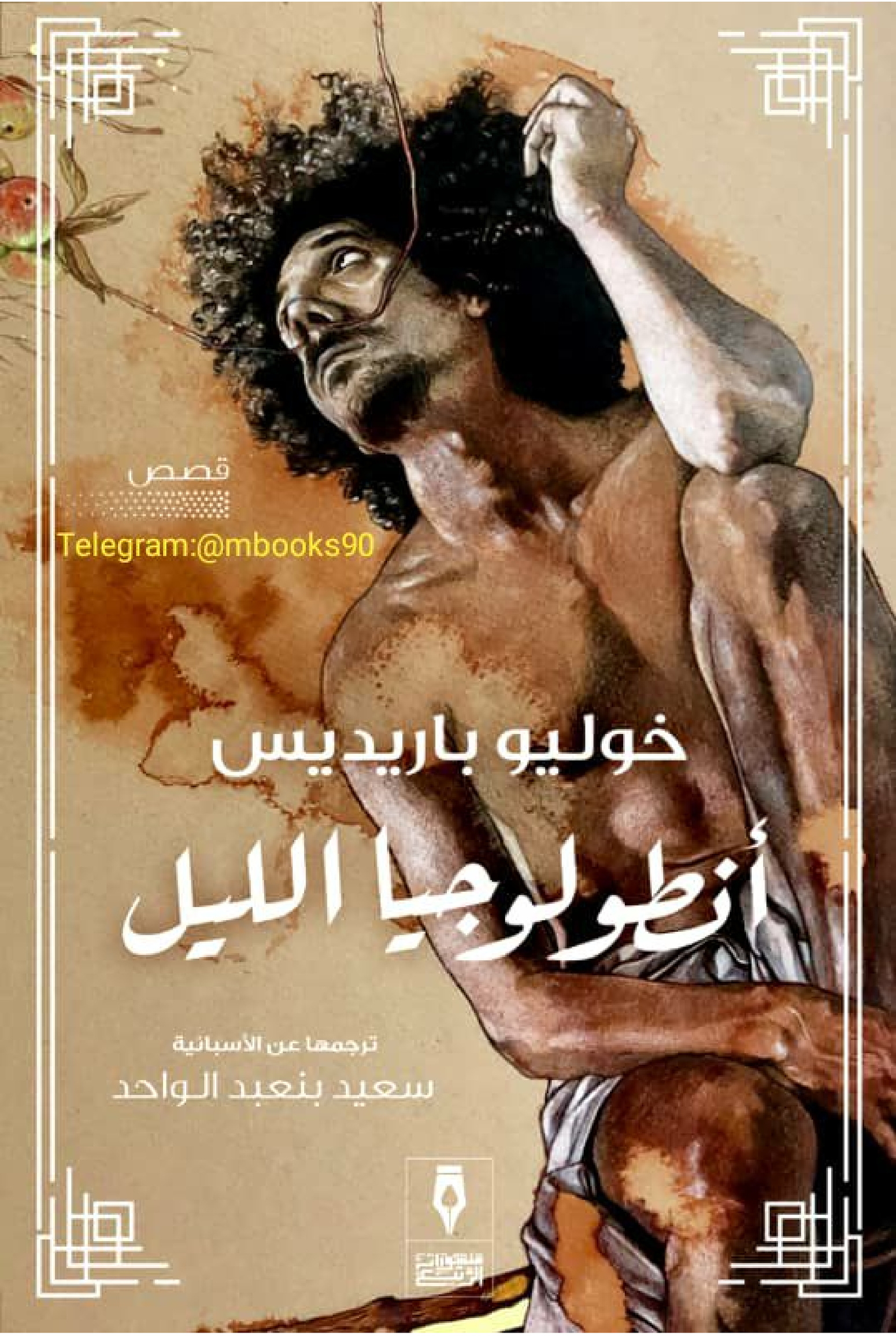

قصص

Telegram:@mbooks90

خوليو باريديس

أنطولوجيا الليل

ترجمها عن الأسبانية

سعيد بنعبد الواحد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أيام عيد

أيقظني الحرُّ مرةً أخرى. ورغم الدوخة التي تركتني فيها زجاجات البيرة لم أستطع أن أنام أكثر من نصف ساعة. كان البهو الضيق، الذي يقوم مقامَ محطة أو قاعة انتظار، لا يزال فارغًا. نهضتُ من المقعد ودنوتُ من الشبَّاك. كان بائع التذاكر ينام فوق الطاولة، وهو يسند جبينه إلى ذراعيْه المشبكتيْن، مثل سكِّير، تُهدهدُه الموسيقى الغامضة المنبعثة من مذياع صغير عن يساره. نظرتُ إلى الساعة. ثلاث ساعات وأنا أنتظر، رغم أن الرجل أكد لي أن الحافلة لن تتأخر. رأيتُ أنه لا فائدة من إيقاظه. غيرتُ مرةً أخرى قميصي، وهو آخر قميص نظيف أملكُه، ثم أشعلت سيجارة. فتحتُ الكتاب، غير أنه كان يستحيل عليَّ أن أركز في القراءة. يبدو أن الحرَّ يزداد مع تقدُّم الليل! تأملتُ أجنحة المروحة الصدئة ففكرتُ لحظةً أنه بإمكاني أن أُعيدها إلى الحياة لو أبديتُ ما يكفي من التركيز. لكنني تأكدتُ أنه لا يمكن لأي قوة ذهنية أن تُساير هذا الحرَّ. أخذتُ الحقيبة وخرجتُ أبحث عن هواء مُنعش.

في الخارج كان الهواء منعشًا. جلستُ على حافة الرصيف، أستندُ إلى شجرة لا يزال ينبعث منها زعيق حشرات الزيزان.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أدهشتني السرعةُ التي شُلّت بها القرية، بينما كان كل شيء قبل ساعات يُشير إلى أن الحفلة سوف تستمر حتى الفجر. وفي غرناطة، تلك القرية التي تركتُها هذا الصباح، لن ينام الناس طوال الأسبوع. تصورتُ أنه في الساحة قد تكون ثمة حانة ما بقيت مفتوحة، لكني لو ابتعدتُ قد لا أُدرك الحافلة، التي يمكن أن تظهر لا محالة في أيِّ لحظة. لكن، رغم الحر والانتظار، كنتُ هادئًا، غير مُنشغل بما تبقّى من ساعات قبل الوصول إلى بوغوطا.

وفجأة لاحت لي هيئة شخص وسط الشارع، على بُعد خمسين مترًا عن يميني. تصورتُ أنه قد انفكَّ للتو من غصن شجرة. ظلَّ جامدًا لحظةً، فظننتُ أن حضوري قد أفزعه. تقدَّم خطوتين ثم توقف مرةً أخرى. انتظرتُ، فدَنا حينها ببطء، صامتًا، مثل قنّاص. عندما كان على بُعد عشرة أمتار توقّف مرةً أخرى، استدار برأسه وظلَّ لبضع ثوانٍ ينظر إلى الخلف، كما لو أنه ينتظر مرافقًا متأخرًا. كان يضع قُبعة ويحمل حقيبة صغيرة في كلِّ يد. نهضتُ بحذر، دون أن أتوقف عن النظر إليه، وحين استأنف خطواته فكرتُ، دون أن أعرف لماذا، أنه كان يمشي مثل مشلول شملته معجزة شفاء بعنايتها أخيرًا.

لم أفارق الشجرة، وقررتُ ألا أقوم بأيِّ حركة مفاجئة ما دام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذلك الشخص غير ماثل أمامي. حين وصل، نظر مرةً أخرى إلى الخلف، أخذَ نَفَسًا عميقًا ثم نثر الهواء من فمه وهو يضع أمتعته على الأرض. وضعتُ سيجارة في فمي لكني عَدَلتُ عن إشعالها. حدجني بنظرة سريعة، فيما يشبه عملية كنْس انتهت في الجهة الأخرى من الشارع. شككتُ إن كان قد انتبه إلى ظلّي تحت الشجرة. حاولتُ أن أظل جامدًا فانتبهتُ إلى أن دقّات قلبي بدأت تتسارع. نظر الشخص إلى باب المحطة ثم مرَّر منديلًا على جبينه. كان ضوء العمود، الأصفر والباهت، ينزل عموديًّا فوقه، لكن ظِلَّ حافة القبعة يُخفي وجهه.

- هل ثَمَّ حافلة؟ سألني فجأةً، متعبًا، ودونَ قوة في صوته.

- أظنُّ ذلك. أجبتُه، وأنا أبتعدُ عن الشجرة.

- هل تعرف متى تصل؟

- لا. قلتُ وأنا أُشعل السيجارة.

خلع قبعته ومرَّر المنديل على رقبته. ورغم الضوء الخافت استطعتُ أن أرى عينين صغيرتين وشاربًا متناثرًا فوق شفتيه. عدَّل قبعته برفق، رفع الحقيبتين ثم توجّه نحو الباب. تابعته بعينيّ حتى دخل. توجهتُ نحو الزاوية. تخيلتُ أن الحرَّ في هذه القرية يمكن أن يبلغ درجةً لا تُطاق، وقد يُحوِّل هذه الشوارع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الهادئة، إلى غلّاية، مع شمسٍ قد تجعل أيَّ زائر عَرَضي يفكّر، غارقًا في الملل، في كارثةٍ موشِكَة. خلال فترات الزوال، في غرناطة، كنتُ أنساقُ وراء هذا الإحساس، يرقبني مجموعة من الأطفال الجِيَاع بعيونهم الواسعة الخضراء المفتوحة دائمًا، أسمع رشقات رصاص الحرب في التِّلال، وذهني متوحِّل في القيظ، لا أملك قوةً لأنهض. أنتظر وصول الجرحى الأوائل.

عندما دخلتُ إلى المحطة وجدتُ الوافد الجديد مُستلقيًا على المقعد الخشبيّ. ظلَّ رجلُ الشباك غارقًا في نومه، في الوضعية نفسها. أردتُ أن أخرج ثانيةً، لكنه كان قد انتبه إلى دخولي.

- هل معك ساعة؟ سألني.

- قريبًا ستكون الثانية عشرة. قلتُ، دون أن أنظر إلى الساعة.

- هل يمكن أن يعرف هذا شيئًا؟

طرح السؤال وهو يُشير بحركة من رأسه إلى الرجل في شبّاك التذاكر. لم أُجِب، لأن الأمر، في الحقيقة، كان تعليقًا بصوت عالٍ. لم يكن يضع قبعته، وتحت شاربه ميزتُ فَمًا دقيقًا ونحيفًا، تعبرُه تجعيدتان تبتدئان عند الأنف.

- هل تدخن؟ قلتُ وأنا أقدِّم له سيجارة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- إلى أين أنت ذاهب؟ سألني بعد أن نفث أول نفخة دخان.

- إلى بوغوطا.

نظر إليَّ باندهاش، فكرتُ لحظةً أنه ليس متزنًا تمامًا. كان يرتدي قميصًا قطنيًّا أبيض، فُتِحَتْ أزرارُه حتى منتصف الصدر. جلدُه مدبوغ، وحجم يديه جعلني أفكر في أنه يمكن أن يسحق إغوانةً دون أدنى صعوبة. لكن العينيْن الصغيرتيْن، تحت قوس الحاجبين المتناثرين، تمنحان وجهه تعبيرًا عن الطيبة. خمنتُ أنه قد يكون في الستين من عمره.

- هل تريد؟ قال وهو يقدِّم لي زجاجة بيرة أخرجها للتو من ورقة جريدة.

فتح لنفسه زجاجة أخرى وشربنا في صمت. كانت دافئة بعض الشيء، لكنها أنعشت حلقي. أنهى زجاجته بعد حوالي خمس جرعات ثم نشّف فمه بظهر يده. ظلَّ للحظة يتسلَّى بالزجاجة بين أصابعه فانتظرتُ، دون أن أعرف ما أقول، كي يقرر أن يسحقها بيديه. فجأة، عَبَرت تكشيرةٌ لمدة ثانية وجهه فرمى الزجاجة إلى زاوية. دون قصد، نظرتُ إلى المقصورة الضيقة، لكن الصوت لم يكن كافيًا لإيقاظ الآخر. تسلّل نسيمٌ مفاجئٌ إلى المكان، فحرّك المصباحَ المعلَّق في السقف وترك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

برودةً خفيفةً في ظهري وإبطيّ المُبلَّلين.

- هل تشتغل هنا؟ سألني وهو ينهض.

- لا. أجبتُ.. أنا من غرناطة.

- إذًا، أنت من الجنوب. قال مُعلقًا، وهو ينظر إلى الباب الرئيسي.

- نعم، تقريبًا.

- وكيف هي الأمور هناك؟

انتابني إحساسٌ بأنه لا تهمُّه حقًّا معرفة الظروف، أو أنه على الأقل لا يهتم بما أقدِّمه عنها من رواية وتأويل.

- كما في كل مكان.

فجأة، توجَّه نحو باب الخروج. رأيتُه يتوقَّف وسط الشارع، ينظرُ من جهةٍ إلى أخرى.

- بدا لي أنني سمعتُ صوتَ محرِّك. قال.

نهض الرجل في الشبّاك، ألقى علينا نظرة سريعة وخرج من المقصورة. كرر نفس حركات الآخر، كما لو أن كلاهما يستجيبان لدافع نداء واحد لم أشعر به.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ الحافلة. قال وهو يدخل، ثم سرعان ما سمعتُ هدير المحرِّك.

تركتُه يسبقني، وما إن بلغ الخارج حتى وقف ونظر مرةً أخرى إلى جانبيْ الشارع. لا أدري لماذا أدهشتني حركته، لكن وهو يسلِّم الأمتعة إلى مُساعد السائق تصوَّرتُ أنه ما زال واثقًا من الوصول العابر لرفيقه الذي تاه في الظلام.

*

كانت الحافلة شبه فارغة. اتخذتُ لنفسي مكانًا وسط الكراسي الوسطى، قرب النافذة. عندما صعد الآخرُ لاحظتُ أنه كان يبحث عني، وحين لَمَحَني قرر أن يجلس عند نفس المستوى، في كرسي في الصف المقابل. أقلعت الحافلة بسرعة وفي غضون ثوانٍ تركنا القرية وراءنا. بعد برهة، اقترب مني ومدَّ لي زجاجة بيرةٍ أخرى دون أن ينبس ببنت شفة. همهمتُ: "شكرًا". لا أظن أنه قد سمعها بوضوح. كانت البيرة من دون طعم هذه المرة، كما لو أن بها شيئًا زائدًا من الماء أو اللُعاب. كنتُ متعبًا لكني أعلم أنني لا أستطيع أن أنام. داخل الحافلة، كان الصمت كاملًا ولا يمكن سماع سوى هدير المحرِّك وهو يواجه أولى عقبات الجبال. فتحتُ النافذة بعض الشيء، فدخل نسيمٌ مع رائحة منعشة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فكرتُ في رحلتي إلى بوغوطا، وفي مشروعي الفاشل في غرناطة. لم تتغير الأمور قيدَ أنملة طوال هذه السنوات الأربع وكانت الدروس التي تلقيتُها تقتصر على المساعدات الأولية وعدد لا يُحصَى من التدخّلات الجراحية مع ما يرافقها من عمليات تشريح. لقد ذهبتُ إلى غرناطة وكلّي طموح لأكون منقذًا لكني غادرتُها وقد باغتتني رواسبُ حمى التّيفوس.

بعد عدة ساعات من السير، توقفت الحافلة عند نُزل قرب الطريق. دخلنا من جديد في منطقة ساخنة. ورغم الوقت المتأخر كان المكان يعج بالحركة. دخلتُ إلى الحمام وبلّلتُ رأسي كي أستيقظ. طلبتُ بيرة وبطاطس مقلية. كان رجال يشغلون معظم طاولات المحل، ومن بعض مكبرات الصوت كانت تنبعث ما يشبه موسيقى الكومْبيا. جاء الذي صعد معي إلى الحافلة في المحطة ثم دنا من الطاولة يحمل واحدة من الحقيبتيْن الصغيرتين، وسألني إن كان بإمكانه أن يجلس. سحبتُ الكرسي إلى جانبي ودعوته إلى بيرة.

- يبدو أنها ستمطر - قال بعد أن عبّ أول جرعة.

- إلى أين أنت ذاهب؟ - قررتُ أن أسأله، رغم أنه ليس من عادتي أن أدخل في حديث مع الغرباء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ إلى قرية قريبة من هنا، على بعد ساعتين ـ أجاب وهو يشير بيده نحو وجهة غير محددة خلف ظهري.

أنهينا البيرة ونهضنا معًا في الوقت ذاته. صعدنا إلى الحافلة وسرعان ما ظهر السائق. كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة حين استأنفنا الرحلة.

*

أيقظني صفيرٌ حادٌ. كانت الحافلة قد توقفت ولمدة ثوان معدودة نسيت أين كنتُ. استيقظتُ دائخًا بعض الشيء وألمٌ قوي في خصري. تصورتُ أننا قد بقينا متوقفين لمدة طويلة. لم يكن السائق حاضرًا، وكان زوجان جالسيْن في الصفوف الأمامية يتحدثان بصوت منخفض.

ـ ما الذي يحدث؟ ـ سألتُ، وأنا أدنو منهما.

ـ يبدو أن هناك انهيارًا أرضيًا ـ قال أحد الرجال.

عدتُ إلى مقعدي وأنا أشعل سيجارة. في الخارج، كان ينزل مطر خفيف. أخذتُ الحقيبة، والمعطف في يدي ثم قررتُ أن أنزل.

كان صف العربات، معظمها شاحنات وحافلات نقل، يمتد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أمام الحافلة وخلفها. وعند أعلى الطريق، بعد المنعرج، كان يسمع هدير محرك، يرفع السرعة ويخفضها. ارتديتُ المعطف وقررت أن أقترب من مكان الانهيار. ولم أقطع أكثر من عشر خطوات حتى سمعتُ خلف ظهري صوتًا فاجأني:

ـ سأرافقُك.

تركته ليلحق بي وبدأنا نسير على مهل ومن دون كلام. كانت الطريق ترتفع كلما تقدمنا، وبعد نصف كيلومتر تقريبًا وصلنا إلى مكان بداية الانهيار. كان عدة أشخاص قد احتشدوا عند تلك النقطة يراقبون باهتمام حركات الجرافة، التي كانت تحاول في تلك اللحظة بالضبط أن تزيح آخر الصخور التي انهارت من الجبل. اختفت أرضية الطريق تمامًا تحت طبقة من الوحل والأحجار، ويبدو أن الآلة والرجال لم يكونوا كافين ولا قادرين على فتح الطريق.

ـ لو استمرت الأمور على ما هي عليه سيضطرون لاستعمال الديناميت ـ قال وهو إلى جانبي، بنبرة خبير مُقْنعة.

ـ من الأفضل أن ننتظر داخل الحافلة ـ قلتُ، وأنا أعود.

ـ هل تريد أن تأكل شيئًا؟ ـ اقترح على الفور، ثم أشار إلى أضواء كشك صغير أقيم على حافة الطريق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا، شكرًا - أجبتُه بلطف.

نزلتُ مرة أخرى حتى وصلتُ إلى الحافلة. قال الآخر إنه سيبقى يراقب لبعض الوقت حتى يرى إن ظهر هناكَ جديد. وعلى طول القافلة المتوقفة كانت قد تشكلت مجموعاتٌ صغيرة وكلهم يتحدثون، حسب ما سمعتُ وأنا أنزل، عنِ المدة التي قد نستغرقها ونحن محاصرون في ذلك المكان. تخليتُ عن الصعود ثانية إلى الحافلة، وجلستُ فوق صخرة، بين الشجيرات التي تحفّ الطريق. كان الجو دافئًا، ورغم أن المطر الخفيف لم يتوقف عن الهطول فقد كان يبدو كأنه يتبخر فوق الثياب. ميزتُ، وسط الصخب المُخفَّف لمحرك الجرافة، هديرَ جدولٍ يجري في عمق الهوّة، التي خمنّتُ أنها ليست عميقة. كانت رائحة النباتات قوية. كانت الرائحة المتشابهة، التي لا تتغير على مدار السنوات تبعثُ الطمأنينة في نفسي. منذ شبابي وأنا أحلم بالعيش في منطقة ساخنة، متأكدًا على الدوام من أن مجمل قدراتي سوف تكون رهن إشارتي. كنتُ أعتبر أجواءها مواتية للرؤى والأحلام. لا تشبه في شيء مدينة بوغوطا، مكان قاتل لا يملكُه أحد. لكن روعة ذلك الحلم كانت قد فسدت في غرناطة، وأخضعتني لعواقبها، التي لا تقل ضررًا عن الحمى التي أنهكتني.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ ألم تستطع النوم؟ ـ سمعتُ سؤالًا من خلفي.

نهضتُ كما لو أنهم وجهوا لي ضربة عنيفة. فقدتُ توازني وسقطت مرة أخرى جالسًا فوق الحجر، وأنا أخدش يدي اليسرى حين حاولتُ أن أقف.

ـ عفوًا... لم يكن قصدي أن..

ـ لا تشغل بالك. كنتُ ساهيًا شيئًا ما ولم أسمعك وأنت قادم.

جلستُ قبالته. كانت الشجيرات تظلل وجهه. ران الصمتُ لحظة وفي الأخير قرر أن يبحث لنفسه عن مكان يجلس فيه. لم أستطع رؤية ملامحه بوضوح، لكن شكوكًا خامرتني في أنه كان يحدق فيَّ.

ـ هل كنت تفكر في عودتك إلى بوغوطا؟ ـ سألني.

ـ تقريبًا ـ أجبته دون رغبة في أن أكون أكثر وضوحًا، وقد صار يزعجني هذا الإلحاح الذي بدأت أتحققُ منه، كما لو أنه كان يقتفي خطواتي.

ـ يبدو أنه لن يكون من السهل أن تتحرك الحافلة ـ قال.

أجبته بما يشبه الهمس. كنت أعرف أن أي مسافر يضطر، على مضض، بأي نوع من الانتظار، يبدي استعدادًا للتواصل،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويعْرضُ ألفة سريعة على أول شخص يصادفه. لكني لم أستجب قط لهذا النوع من الاستعداد، وغالبًا ما أحاول أن أبقى بعيدًا، أو، كما في هذه الحالة، أن أجيب بكلمات قصيرة. في الحقيقة، كنتُ دائمًا أجد صعوبة في تحديد أبعاد هذا العجز، ورغم أن الأمر لا علاقة له بالنفور، أو أي بلاهة أخرى، فإن من عرفوني في بوغوطا كانوا يُجْمعون على اعتباري شخصًا مضجرًا وفظًا. رأيتُ شبح الآخر، فعرضتُ عليه سيجارة ثم بقينا لحظة أخرى دون أن ننبس ببنت شفة.

انتبهتُ إلى أن ضجيج الآلة قد توقف. كما لو أنه يستجيب لدافع غير منتظر، نهض فجأة ومشى نحو الطريق. سمعتُ عدْو شخص ينزل ولمحتُ بين الأغصان مجموعة صغيرة من الناس قرب الحافلة. نهضتُ وبحثتُ عن مكان لأتبوّل. خرجتُ واقتربتُ من الآخرين.

ـ لا أظن أن الطريق فتحت ـ قال وهو يراني أقترب.

تعالت بعض التعليقات بين من كانوا في المجموعة، وفي الأخير اقترح مساعد السائق أن يصعد رفقة شخص آخر، ويتأكدا مما كان يحدث. تشكلت حلقات حول العربات ومن الجهة الخلفية للقافلة كان يصعد أشخاص يحملون مصابيح يدوية ويتقدمون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بخطى ثابتة نحو مركز الانهيار. كان كل شيء يشير إلى أن توقف الأشغال كان دليلًا واضحًا على أننا سوف نستأنف الرحلة قريبًا. لكن، نظرًا لما رأيته هناك في الأعلى، كنتُ أخشى أن يستمر الانتظار ساعات أخرى طويلة.

دخلتُ من جديد إلى الحافلة. كنتُ أريد أن أنام لحظة أخرى، لكنه كان يستحيلُ أن أجلس مرتاحًا في المقعد الضيق. بدأتُ أتصبب عرقًا من جديد، ولاحظتُ أن حلقي كان جافًا ويؤلمني بعض الشيء. كنتُ آملُ ألا تستيقظ فجأة أعراض الحمى النائمة حين أعود إلى بوغوطا.

*

ربما لن تعني العودة إلى المدينة فقط إثارة هذا الاضطراب الذي كان بالكاد مكتومًا. منذ عدة شهور، كانت تربكني فكرةُ أنه حين سأصل سوف أكتشف أنني قد أخطأت مصيري مرة أخرى. كنتُ أعرف أنني قد استطعتُ في غرناطة أن أنسى جزءًا كبيرًا من الأسباب التي جعلتني أترك المدينة، كما ساعدتني على التخلص من أكاذيب حب ماريتْزا، أو الاستياء الذي تركهته صداقة وهمية، لكن، على الرغم من ذلك، لم أستطع أن أتخلص من العادة السيئة في القيام بتخمينات والبقاء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

معلقًا في كل لحظة وحينٍ في هذا الهذيان الملتوي حول القادم من الأيام. بكل تأكيد، ساهمت الأماسي التي قضيتها في المستشفى في تفاقم هذه الحالة المزاجية، التي حولتني، مع مرور السنين، بما في ذلك هذا الفجر، وأنا جالس في الحافلة، إلى حيوان مجترٍ كاملٍ، لا أكف عن التجشؤ بالرغبة في الحياة مثل أي فانٍ على وجه الأرض. لم أكن من بين الأشخاص الذين يستطيعون أن يقوموا بجرد مستمر يلخصون فيه لُقاهم العظيمة، الحكيمة والمسلية، والسِّجِلُ الوحيد الذي أحملهُ معي إلى بوغوطا من الحياة القصيرة التي عشتها في غرناطة هو ذكرى مجموعة من الأطفال والجنود وهم يتأملون صعودي إلى الحافلة.

ـ إن الأمر يتطلب وقتًا طويلًا ـ عرفتُ الصوت وفتحتُ عينيّ. وجدته جالسًا على ذراع المقعد ـ يقولون إنه ينبغي العودة من هناك واتخاذ طريق أخرى.

تطلعتُ إلى الوقت في الساعة. لم يعد هناك إلا وقت قصير على طلوع النهار. أجبتُ بنقرة من لساني، ثم نهضتُ وعبرتُ الممر الضيق حتى بلغت مقعد السائق. نظرتُ من النافذة.

ـ هل تريد أن تسافر إلى بوغوطا؟ ـ سألني.

ـ نعم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ أعني هل تريد أن تتابع سفرك إلى بوغوطا ـ صحح على الفور.

ـ أظن ذلك ـ أجبته دون أن أفهم تمامًا ذلك التصحيح أو التوضيح الذي قاله للتو.

ـ هل أنت مستعجل؟

تأخرتُ في الرد. كنتُ أريد أن أصعد حتى الكشك وأبحث عن شيء آكله. نظرتُ إلى الوجه، غير الواضح وسط العتمة.

ـ إنني لست على عجل من أمري ـ قلتُ أخيرًا، وأنا أدنو من المكان لآخذ الحقيبة.

قبل أن يخرج، مدّ لي يده وقدّم نفسه:

ـ ألبيرْتو مولينا.

ـ روبين ماركيث ـ قلتُ بدوري، دون أن أضغط على الأصابع تقريبًا، وقد اندهشتُ ليس للحركة المفاجئة التي قام بها الآخر، بل للاسم الذي ابتكرته للتو.

بقيت لحظة دون أن أقرر إن كنت سأنزل أم لا. كان التقديم المفاجئ يؤكد لي أنه مستعد للتحدث معي، ليتبعني ويثير انتباهي.

ـ أنا ذاهب لآكل شيئًا ما ـ قلتُ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أتمانع في أن أصعد رفقتك؟ - سألني وهو ينزع قبعته في الوقت ذاته.

- كلا.

*

اشترينا فطيرتي لحم وفنجان قهوة. استمرت الآلة الضخمة في إزالة طبقة رخوة من الوحل. كانت الجرافة تنغرس عميقًا في الوحل وترفع أكوامًا من الأحجار والتراب، ثم تضعه على حافة الطريق. كان مجموعة من الرجال يشتغلون في حائط واقٍ بُني عند أسفل الجبل المنهار. كانت الشمس قد طلعت لتوها والهواء يبدو كأنه قد استعاد عطره. كانت هناك سحب قليلة، وإن لم تمطر فإن الآلة ربما تستطيع أن تفسح المعبر وتثبت الطريق كي يبدأ المرور. قدَّرتُ أن المساحة التي يشغلها الانهيار قد لا تتجاوز الكيلومتر، ومن موقع وجودنا يمكن أن نرى بعض الشاحنات المركونة في الجهة الأخرى. وشيئًا فشيئًا أخذ المكان يمتلئ بالناس، الذين سرعان ما بدوا مندهشين أمام حركات مجيء وذهاب من يشتغلون في الوحل. بعد مدة قررتُ أن أنزل وأبحث عن واحدة من نقط انهمار المياه من بين شقوق الجبل. كانت يديّ لزجتيْن كما لو أنني قضيتُ الليل ألعبُ بالعسل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حبّذ مولينا بدوره فكرة البحث عن شيء من الماء العليل، وحسب ما قال لي فإنه قد عاين جدولًا بعيدًا شيئًا ما عن الأسفل حيث كانت الحافلة. لكن، بالكاد تجاوزنا المنعطف في المنحدر حتى قفز مولينا، دون سابق إنذار، بين شاحنتين. جاء ردُّ فعلي متأخرًا، ودون أن أعرف إن كان عليَّ أن أتوقف أو أتابع السير، اكتشفتُ أنه على بعد بضعة أمتار كان مجموعة من الجنود يفحصون الوثائق ويفتشون الأمتعة. أومأتُ بالتوقف ثم دنوت من إحدى الشاحنتين حيث اختفى مولينا. كانت الشاحنة محملة بقطيع من الحيوانات، تظاهرت بفحصها، وأنا أراقب مجموعة الجنود هناك في الأسفل. كان هناك قائد وأحصيتُ من حوله خمسة جنود مسلحين ببنادق من نوع M-16، يسندونها إلى خصورهم، أصابعهم على الزناد والفوهة إلى أعلى. تحسستُ المحفظة التي أحتفظ فيها بالوثائق، وتابعتُ النزول. عندما وصلتُ إلى مكان التجمع المرتجل وجدتُ شخصين يرتديان ملابس مدنية، كل واحد يحمل مسدسًا من نوع "أوز"، معلقًا على كتفه، يدخنان بهدوء على حافة الطريق.

بعد بضع أسئلة أعاد لي الضابط الوثائق، وبحركة من يده أومأ لي أنه يمكنني أن أتابع السير. فكرتُ في مولينا وفي اختفائه المفاجئ. افترضتُ أنه لم يكن يحمل معه وثائق، أو ربما كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يريد تجنب مصادفة العسكريين. تذكرتُ وصوله إلى المحطة وإلحاحه على تفتيش الشارع مرة تلو الأخرى. تصورتُ أنه كان في تلك اللحظات يتأكد من أن لا أحد يلاحقه، عكس ما فكرتُ فيه في البداية. ومع ذلك، لم أكتشف أنه كان متوترًا ولا منشغلًا، وخلال الحوارات القصيرة التي دارت بيننا، كنتُ أراه هادئًا وله رغبة في أن يبدو وديًّا. مشيتُ حتى بلغت ماءً منهمرًا تَشكّل أمامه صفٌّ من الناس، ثم بللتُ يدي ورأسي. وعلى الفور، رأيتُ مولينا.

- هل خلقوا لك مشكلة؟ - سألني.

- كلا. فقط سألوني عن وجهتي.

وضع الحقيبة على الأرضية، بحث عن مكان يجلس فيه ثم أطلق تنهيدة قوية. ظل لحظة وهو يحرك التراب بقدميْه، جذعُه مندفع إلى الأمام، مرفقاه مستندان إلى ركبتيْه، ويداه مشبكتان. وفي ضوء النهار، كان لون بشرته يحمل هذه السمرة القوية التي يكتسيها جلدٌ ناصع البياض. كان هناك ندبان طويلان على ذارعه اليمنى. والقبعة تغطي وجهه. كنتُ متأكدًا أنه كان يريد أن يشرح لي ما حدث من قبل.

- في أي منطقة من بوغوطا تسكن؟ - سألني فجأة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- إنني ما زلت لا أعرف أين سوف أسكن - أجبتُه.

رفع عينيه وابتسم.

- ليست لديك أسرة؟

- نعم، لكن دائمًا، أو بالأحرى، منذ أن غادرتُ البيت وأنا أعيش وحدي - أجبتُ.

فكرتُ في ماريتْزا فشعرتُ بألم خفيف في المعدة. تفاجأتُ بما قلتُه، كما لو أنه كان تعليقًا وجهتُه لنفسي بصوت عالٍ. خلع مولينا قبعته ورجّها قبل أن يضعها من جديد فوق رأسه.

- لديّ أختٌ تسكن في بوغوطا - قال.

بقيت صامتًا. فجأة، فتح الآخر الحقيبة وراح يبحث عن شيء ما.

- هل يمكنك أن تقدم لي خدمة؟ - سألني، دون أن يكف عن تقليب ما كان يحمله داخل الحقيبة.

انتظرتُ أن ينتهي. وأخيرًا، أخرج ظرفًا أبيض ومدّه لي. تلقيتُه وأنا مندهش شيئًا ما للثقة التي كان يفعل بها بذلك. قرأتُ العنوان وانتبهتُ إلى أن مولينا كان ينظر لي بانتباه فظننتُ أنه كان يشعر بالارتياح لأنني قبلت المهمة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- إنه لأختي - شرح.

احتفظتُ بالظرف في الحقيبة وبحثت عن السجائر. من جديد سمعتُ هدير المحرك هناك في الأعلى، وبين لحظة وأخرى تعالت أصوات الصفارات. نهض مولينا ثم قال وهو ينظر إلى أعلى:

- يبدو أن هناك حركة.

مشينا حتى بلغنا الحافلة وبعد مدة وصلت أولى الشاحنات القادمة من الجهة الأخرى. قبل أن يصعد قال لي مولينا وهو يمسكني من ذراعي:

- أتمنى ألا أزعجك وأنا أطلب منك تلك الخدمة.

- ليس هناك أي مشكل.

- ألا يزعجك ذلك؟ - قال ملحًا.

- كلا.

بقيَ لحظة هناك في الأسفل، ينظرُ إلى الطريق. جلستُ في نفس المقعد. شعرتُ أن التعب كان يصعد عبر قدميّ، محدثًا تنميلًا ذكّرني بليالي الحمى في غرناطة. تكاثرت أصوات المنبهات وأخذ سائق الحافلة يزيد من سرعة المحرك في قلق. صعد مولينا، وحين أدرك مقعده، حيّاني بحركة خفيفة من رأسه وهو يمرر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يده على حافة القبعة.

- إنني أدعوك للفطور - قال بعد أن جلس.

لم ينتظر جوابًا ثم أدار رأسه نحو النافذة. تصورتُ أنه سيشرح حكايته فيما بعد. لم أكن أشعر بالارتياب، لكن السهولة التي قبلتُ بها طلبه ظلت تدهشني. انتبهتُ إلى الشكل الجانبي لوجهه. كان رأسه عاريًا ويبدو أن علامة القبعة قد تركت شقًا في شعره القصير. تصورتُ أنه قد فحصني في السر فحصًا دقيقًا، واكتشف فيَ شخصًا جديرًا بالثقة، نظرًا لطريقتي الخاصة في النظر إلى العالم وإلى الآخرين. فكرت أن الأمر ربما لا يتجاوز ذلك. أخذت الحافلة تتقدم ببطء وبعد نصف ساعة تقريبًا استطعنا، أخيرًا، أن نتابع السير. ومن جديد رأيت ذلك الطيف وسط الطريق، وهو يبحث متلهفًا عن نقطة ما ضائعة وسط الليل.

*

بعد حوالي ثلاث ساعات، توقفنا في قرية قليلة السكان. أخبرنا السائق أنه بسبب الانهيار لن تكون هناك حافلات حتى منتصف الزوال. ولجتُ أنا ومولينا مقهى قريبًا من المحطة وتناولنا الفطور في صمت. أيقظني الحساءُ. أكل مولينا على مهل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحين جاءت المرأة لتسحب الأطباق من المائدة، طلب فنجانيْ قهوة. تركته يطلب وأخبرته أنني سأخرج بحثًا عن السجائر.

ـ لا بد أن لديهم سجائر هنا ـ وأوقفني.

نهض وجلب لي علبتيْن. أبى أن يأخذ مني نقودًا.

ـ هل تشعر بالنوم؟ ـ سألني.

ـ شيئًا ما ـ قلتُ، وأنا أرفع الستار الذي يحجب النافذة.

ـ إذًا، أنت تتابع رحلتك إلى بوغوطا؟

قلت له إن الأمر كذلك، رغم أنني كنتُ أريد أن أبحث عن مكان وأرتاح قليلًا. ثم إنني كنتُ أريد أن أتحمم بل وأشتري قميصًا جديدًا.

ـ يمكن أن نبحث عن فندق ـ اقترح.

بقينا لحظة دون كلام. بدأ مولينا ينقر حافة الصحن بملعقة صغيرة. رفع رأسه وابتسم لي.

ـ هل نذهب؟ ـ سألتُه، وأنا آخذُ الأمتعة.

نظر إليَّ كما لو أنه لم يفهم الكلمات، ثم صوب قبعته نحو الخلف وهزّ كتفيه. وزاد التعب من حدة غرابة ذلك الحوار.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ سوف أذهب لأبحث عن مكان ـ قلتُ وأنا أتظاهر بالوقوف.

ـ انتظر ـ قال، وهو يخفض صوته.

ترددتُ لحظة وقلتُ له إنني بحاجة لأذهب إلى الحمام. حين عدتُ إلى المائدة كان قد طلب فنجانين آخرين من القهوة.

ـ هل يمكن أن أثق بك؟ ـ سألني عندما جلستُ.

شعرتُ بالانزعاج من السؤال، لأنني لا أملك له جواباً. انتبهتُ إلى المقهى من حولنا. من بين الموائد الأربع أو الخمس الباقية، كانت مائدة واحدة يشغلها شخص يقرأ الجريدة. ووراء منضدة الشرب تمكنتُ من رؤية حافة رأس تلك المرأة التي خدمتنا. ومن الداخل كانت تصعد رائحة الطعام.

ـ أنا بحاجة إليك لتساعدني ـ قال مولينا ملحاً، بهدوء.

ـ ماذا تريد؟ ـ سألتُه في النهاية، وأنا أحاول أن أخفي دهشتي مرة أخرى. في الحمام، حاولتُ أن أفكر لكني كنت جد متعب كي أبحث عن تفسير لهذه الحميمية المفاجئة التي يطالبني بها الآخر.

ـ ربما أزعجتك وأنا أطلب منك أن تحمل تلك الرسالة ـ بدأ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قائلًا. لم أقل شيئًا وتركته يتابع كلامه ـ في الحقيقة، ليست لدي أي أخت في بوغوطا ـ اعترف قائلًا ـ يتعلق الأمر بامرأة لم أرها منذ مدة وبواسطة تلك الرسالة أريد فقط أن أُذكِّرها بأنني ما زلتُ أذكُرُها...

توقّف، نظر إليَّ، ثم أشاح بعينيه عني في الحال، كما لو أنه كان فقط يريد أن ينتبه إلى تعبيرات وجهي. لاحظتُ اليدين القويتين، المتصلبتين فوق المائدة.

ـ إنها امرأة من الشيلي ـ قال بعد تنهيديتيْن ـ تعرفنا إلى بعضنا في مدينة ليما. كنتُ وقتها أعمل بشكل مؤقت في سفينة شحن وهي كانت هناك قرب الميناء. بعد وقت قصير قبلتْ أن ترافقني إلى كولومبيا، حيث عشنا معًا في أماكن مختلفة، وحين أدركتُ أننا لم نعد نحب بعضنا البعض، رحلتُ، ـ لزم صمتًا طويلًا، ثم تابع ـ : في الأيام الأخيرة، فكرتُ فيها، أنت تعرف. ثم إنه ليست هناك امرأة أخرى.

انحنى إلى الخلف ثم حدّق فيَّ. لم أدر إن كان يريدني أن أترك تعليقًا، لكني كنتُ حائرًا أمام تلك السرعة المذهلة التي نخص بها حكايته. افترضتُ أن مولينا اكتشف أنني أنظر إليه باندهاش لأنه عاد واستسمحني، مبتسمًا:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- سامحني. ربما لا يهمك كل هذا، يا سيدي.

- لماذا تحكيه لي؟ - سألته.

نظر نحو الشارع قبل أن يجيب.

- لا أدري، ظننتُ أنك كنت تريد توضيحًا.

لم أقل شيئًا. طلبتُ قهوة أخرى. شربناها في صمت وانتابني شعور بأن حكايته لم تنته بعد. فحصتُ من جديد ملامح وجه مولينا، وانتظرت أن يواصل حكايته. فجأة، انحنى، بحث عن شيء ما في الحقيبة الصغيرة ثم مدّ لي ورقة بحجم بطاقة بريدية. كانت صورة لامرأة بالأبيض والأسود. امرأة شقراء، ذات شعر قصير غير مصفف، كما لو أنها استيقظت للتو من نوم قريب. ترتدي لباسًا أبيض من دون أكمام وتبتسم برغبة كبيرة، لتكشف عن صف من الأسنان البيضاء الرائعة. تجلس وهي تشبك رجله اليسرى، التي تضعِ عليها برفق يدها، كا لو أنها تريد أن تغطي خطوط الركبة. ونظرًا لوضعية آلة التصوير، فإن ربلتيْ ساقيها تعطيان الانطباع بأنهما مفرطتان في الطول، ومن حذائها الذي لا مقدمة له، تظهر أظافرها المغطاة بطلاء داكن. أعدتُ له الصورة. نظر إليها مولينا لحظة ثم احتفظ بها من جديد. مسح عن جبينه العرق بمنديل ورقي، ثم عدّل قبعته. تأكدتُ أنه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا فائدة من أن أستمر في مساءلة ذاتي لماذا اختارني لأكون مخاطبه وشريك سره. لابد أنه كان ينتظر هذه المناسبة منذ مدة طويلة.

ـ أريدك يا سيدي أن تتمكن من رؤيتها ـ اقترح، وهي غير واثق بعض الشيء.

ـ ماذا تريدني أن أقول لها؟ ـ سألتُه.

لزم مولينا الصمت لحظة. ورغم قوة ملامحه، كان يبدو تحت رحمة القوة نفسها التي كانت تجرف أطفال غرناطة الجائعين وتُهلكم. تصورتُ أنه كان يستعيد بكل التفاصيل الأحداث التي تشكل حكايته مع المرأة، يُقيِّمها وهو يحاول أن يستشف معناها الدقيق، كما أحاول شخصياً، وأنا أتصبب عرقاً من الحمى، أن أميز الأمور التي حدثت لي بالفعل من تلك التي كانت مجرد أوهام ورغبات. تنخنخَ مولينا بقوة، كما لو أنه يريد أن يخرجني من شرودي ويثير انتباهي. جال بنظرة سريعة على الموائد ثم أجابني أخيراً:

ـ قل لها إنني الآن أتحمل الحر بشكل أفضل ـ كان يريد أن يضيف شيئاً آخر، لكنه كبح نفسه. ثم بدا كأنه واع بأن الجملة تفتقد للمعنى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

*

خرجنا ومشينا حتى بلغنا ساحة القرية. كان يوم سوق ويبدو أن الحركة العامة تساهم في تفاقم الحر. كنت أود أن أتيقن كل اليقين أن مولينا لا يكذب. إذ تدهشني تلك الثقة، وذلك اليقين الذي كان يُظهره وهو يتخذني مبعوثاً له. وجدنا فندقاً في شارع متعامد مع الساحة الرئيسية. أعطونا غرفتيْن متجاورتين في الطابق الثاني. لم أكن أرغب في أن أسال مولينا إن كان يريد البقاء في تلك القرية، لأنني أعتبر أن قبولي الهادئ بالبحث عن المرأة في بوغوطا والحديث معها كان هو أقصى ما يمكن أن أذهب إليه. لكن، قبل أن أدخل إلى غرفتي، نادى علي مولينا:

ـ أظن أنه سيكون من الصعب شيئاً ما أن نلتقي مرة أخرى ـ قال وهو يمد لي يده.

ودّعنا بعضنا وانتظر مولينا حتى أُغلق الباب. تصورتُ أنه لن يتأخر في متابعة الرحلة. بقيتُ مدة طويلة تحت الماء المتدفق شبه الدافئ، ثم فكرتُ في مولينا وحكاية حبه مع المرأة الشيلية التي ربما لن يراها الرجل مرة أخرى. قد تكون تلك الحكاية عادية مثل أي حكاية أخرى، حيث يمكن أن تكون هناك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مناطق وأحداث غامضة، وأنه إن لم يكن كل شيء من ابتكاره، فإن مولينا قد يواجه أسباب صدام طويل ومن دون حل. من يدري ماذا تكون رواية المرأة، وتساءلت إن كنتُ أرغب في النبش عن التفاصيل التي أخفاها عني مولينا عن قصد. استلقيتُ عاريًا فوق السرير، وتركتُ النوم ليأخذني شيئًا فشيئًا. لم تكن هناك مروحة في الغرفة ومن النافذة المطلة على الشارع كان يصعد نسيم دافئ ومتواصل، يشبه هواء مدخنة. قبل أن يأخني النوم فكرتُ أن مولينا، في الحقيقة، لم يتمكن من توضيح مدى عشقه أو محنته، وبدا لي، بطريقة ما، أن هذا اللقاء الخاص، وهو حدث قد يخلو من أي أهمية، كان بمثابة مقدمة سرّ سينجلي عندما أصل إلى بوغوطا. وربما سأضطر، في النهاية، إلى لعب دور أكثر تورطًا، وفيه قد تكف الشخصية التي أجسدها عن لعب دور مبعوث بسيط وعابر، لا يقوم إلا صدفة بحمل رسالة يائسة من يد إلى أخرى، ليتحول إلى جزء لا غنى عنه من الرسالة ذاتها.

*

عندما استيقظتُ، كان حلقي جافًا، كما لو أنني كنتُ مضطرًا أثناء النوم لشرب جرعات عديدة من مشروب مر وكثيف. فكّاي يؤلمانني. خفّ الحرُّ بعض الشيء وكانت الغرفة مظلمة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جلستُ على حافة السرير، ودفعت رأسي إلى الوراء بقدر ما استطعتُ. لاحظتُ أنني كنت أكثر تعباً من ذي قبل، رغم أنني استغرقتُ في نوم عميق.

مشيتُ حتى بلغت الحمام دون أن أشعل الضوء. لم يخرج الماء من أي صنبور. ارتديتُ ملابسي في عتمة الغرفة، التي بالكاد كان يضيئها البريق القادم من النافذة. حين خرجت مشيتُ حتى بلغت غرفة مولينا. دون أن أعرف جيداً لماذا، أردتُ أن أتأكد أنه غادر الفندق. طرقتُ الباب طرقات سريعة قليلة، وعلى الفور، كما لو أنني أستجيب لدافعٍ ما، أدرتُ مقبض الباب. لم يكن هناك أي قفل أمان ففتحته. كان داخلُ الغرفة مظلماً تماماً، فتصورت أنها غرفة من دون أية نافذة. أغلقتُ الباب بعناية ثم بقيت جامداً للحظة، دون أن أتمكن من التعود على الظلام، وقد استغربت نوعاً ما لوجودي المفاجئ في تلك الغرفة. فكرتُ لحظة أنني قد ولجتُ مكاناً خاطئاً، فخشيت أن أصادف شخصاً غريباً ينام فيه. لكني لم أميز أصوات التنفس. بحثتُ عن مفتاح الضوء، حتى أضع حداً لهذا العبث دفعة واحدة.

وكان أول ما وجدته هو الجسم الممدّد فوق السرير، الموضوع جانباً ووجهه نحو الحائط. افترضتُ أنه ينام. حاولتُ أن أفكر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في تبرير ما إذا استدار ذلك الشخص. ركزتُ نظراتي على ظهره، وعلى الفقارات التي يوحي بها القميص، وانتظرت أن تتحرك الثنيات. تذكرتُ تلك الالتواءات التي تسببتْ لي فيها بعض الأحلام التي داهمتني في غرناطة. أحلام دائمًا غامضة، متكاثرة وحادة مثل كورال الزيزان. شعرتُ بجبيني المبلل وبضغط أسناني الذي نزل حتى عنقي، ثم امتد إلى ذارعيّ وساقيّ. كانت يدي تتمسك كالمخلب بمقبض الحقيبة. أردتُ أن أتحكم في التوتر فحركت رأسي في حركات دائرية. في النهاية، قررتُ أن أقترب. كان الجسد في وضع جنيني. اليدان بين الركبيتين والساق فوق الساق. لاحظتُ أن كاحليْ مولينا كانا مكبّلين والعقلة المخفية بين الفخذين ترتفع حتى تشبك المعصمين. تراجعتُ إلى الوراء فجأة فرأيتُ نقط دم عند مدخل الحمام. لم تكن هناك أي علامة عنف في الغرفة، كما لو أن مولينا لم يبدِ أي مقاومة. أبيتُ أن أنظر إلى الوجه فاكتشفتُ أنني منذ أن فتحتُ الباب جئتُ أحمل معي الخوف من أن أجده ميتًا. كان ذلك اندفاعًا تحكم فيه سببٌ لا أستطيع تحديده بالضبط، لا في تلك اللحظة ولا بعدها.

فتحتُ فمي وأخذتُ أرتعش، كما لو أن رواسب حمى متأخرة استفاقت للتو، فتراكمت خفية، وتخمّرت قوتها لتأتي وترجّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من جديد ذلك الحاجز الواهي الذي كان ذرعاً يقيني. بدا لي وكأنني أمام واحد من موتى غرناطة العديدين، بنظرته المنزوية وتكشيرة كنفْس التكشيرة، تلك العلامة التي لا تُدحضُ على المجازر. موتى كانوا يصلون بين يدي كما لو أنهم ينتظرون مني تبرئة نهائية وأنا أرمم أطرافهم دون جدوى. وفجأة، أيقظتني الموسيقى القادمة من الخارج، "كومبْيا" تبدو مضاعفة بفضل مكبرات الصوت المتعددة، ففكرتُ أنه ربما يمكن سماعُها انطلاقاً من الجبال التي تحف القرية. تذكرت أنه كان يوم عيد. ليلة قد لا ينام فيها أحد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جوديكْس (10)

ظهر كورطيث يوم الثلاثاء بعد منتصف النهار. وصل في الشاحنة الصغيرة من نوع "فورد"، ذات اللون الأخضر الفاتح والبابيْن، وهي الشاحنة نفسها التي أخذني على متنها إلى سانتا تيريسيتا قبل ثلاث سنوات. التقينا في "كاسا نيبتونو"، ذلك النّزلُ الذي كنتُ أقيم فيه خلال السنة الأخيرة. دعوتُه لشرب قهوة في قاعة الأكل. بدا لي أنه كان أكثر سمنة، وعِذاراه السميكان، اللذان يلامسان بطرفيهما حافتي شارب كثير السواد، يمنحانه هيئة بطل في فيلم مغمور من الأفلام الغنائية المكسيكية.

لم يكن من العسير منحُه مزاجًا فظًا مع نوبات عنف ممكنة، رغم أنه يُظهر من الجانب وجهًا طيبًا. تذكرتُ أنه خلال حوارنا الأول أيضًا لفتت انتباهي عيناهُ الغاضبتان. فخمّنتُ أنه كان سجين أرق طويل لا يفارقه منذ مدة، وأن نظراته تخضع لنظام يقظة مثل الحمى. ارتشفنا أولى الجرعات في صمت. حينئذ أخبرته أننا لا نستطيع أن نغادر فورًا.

ـ لا يزال هناك فيلم لا يسمحون لي بعد بإخراجه من السينما ـ شرحتُ له.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ لا تشغل بالك. سأنتظر ـ أجاب دون أن يغير نبرة صوته الرتيبة التي حياني بها.

ـ إن شئت نبدأ في نقل الأشياء للشاحنة الصغيرة ـ اقترحتُ.

ـ ماذا تحمل معك؟

ـ أربعة صناديق وحقيبة. إنها في غرفتي.

سحب كورطيث الفنجان دون أن ينهي القهوة، وفجأة بدا وكأنه قد تشجع، ربما بحافز من السيجارة التي أشعلها للتو.

ـ لا داعي لشحنها بعد ـ قال وهو ينفث الدخان برقة تقريباً ـ عندما أعود سنضع الأشياء في الشاحنة ـ أردف.

ـ هل تريد أن تتناول الغداء؟ ـ سألتُه.

ـ لا. أكلتُ شيئًا ما في الطريق.

انتظرتُ حتى يكمل السيجارة، ثم بعد أن ألقيتُ نظرة على الساعة قلتُ له إننا سنلتقي في المكان نفسه. قدرتُ أنني سأعود بين الرابعة والنصف والساعة الخامسة.

ـ أتمنى ألا يأخرني كثيرًا ذلك الموظف المكلف بالقضية.

ـ وهل الفيلم مهم جدًا؟ ـ أراد كورطيث أن يعرف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ بالنسبة لهم؟

ـ لا، بالنسبة لك أنت ـ أوضح وهو يشير لي بشفتيه بعد حركة سريعة من رأسه.

ـ نعم. إنها نسخة ذات قيمة كبيرة، لكن الشرطة تدعي أن الأمر يتعلق بدليل لا غنى عنه.

بدا وكأن كورطيث ظل يفكر لحظة.

ـ لقد قتلوا الأستاذ بينما كنا نعرضهُ خلال الحصة الليلية ـ أردفتُ.

ودون أن نقول أي شيء آخر نهضنا في الوقت ذاته ومشينا حتى بلغنا الباب.

ـ لا داعي للعجلة. أنا أيضًا لدي بعض الأمور العالقة ـ قال كورطيث قبل أن يودعني.

*

في الخارج، كان الجو شديد الحرارة، رطبًا، رغم الريح وانعدام السحب. في المحكمة، اضطررتُ لأنتظر ساعة تقريبا قبل أن يحضر المكلف بالقضية. وحين جاء، لم يقابلني في الحال فاستمر انتظاري حوالي عشرين دقيقة أخرى. ورغم ما بذلته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من جهد، لم يكن من السهل أن أتحكم في العرق النازل عبر ظهري والرغبة، المخادعة لكن الملحة، في أن أنصرف. لم يكن أحد آخر ينتظر في القاعة الصغيرة، فاكتشفتُ أن الكاتبة بالكاد كانت ترفع عينيها عن الآلة الكاتبة، ربما تتظاهر بالتركيز، وقد تمرّست على مثل هذه الظروف.

حين قابلني، في النهاية، اعتذر عن التأخير وأراد أن يُظهر أنه لا يتذكر سبب زيارتي. تمكن، بفضل تنفس صعب، أن يعطي الانطباع بأنه يزاول مهنة شاقة، وأنه منهمك في مهمة بالكاد تترك له وقتًا ليتنفس.

ـ في هذه البلدية حتى الأشياء الجيدة صارت كارثية. لا نملك إلا المشاكل ـ قال مشتكيًا، وهو يتحرك فوق الكرسي الدوّار.

كرَّرتُ، كما في الأسبوع المنصرم وبنفس الكلمات تقريبا، الالتماس الذي قدمته بخصوص الفيلم الذي ما زالوا يحجزونه في السينما، مع بعض الأسطوانات وعدسيّة في ملكي.

ـ آه، الفيلم ـ قال مغيرًا ملامحه وهو يشبك يديه. دفع الكرسي نحو الوراء ثم نظر إليَّ بإمعان. أسند ذقنه إلى أصابعه البيضاء القصيرة ثم تنهد. بدأتُ أظن أن ثمة شيئًا لم أكن أريد أن أفهمه. دنا مرة أخرى من المكتب وفحص ورقة كان يحملها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في يده اليمنى. قرأها في صمت، يشكل الكلمات بفمه مثل متعلم، ثم حرك رأسه. أدركتُ أنه منذ تلك اللحظة فلاحقًا أن وجهة الحوار وقصده قد صارا وهمًا. لن تكون أي كلمة ناجعة لأسترد بها ما كان في ملكي. سمعتُ هدير الشارع. وفي مكان ما من المكتب كان هناك مذياع مفتوح.

- كل شيء جزء من الدليل - قال بجدية.

- لكن لا أحد تقريبًا رأى ذلك الفيلم - تذرعتُ قائلًا.

ارتجفت حافتا شفتيْه فخمنتُ أنه يريد أن يضحك، رغمَ أنه بذل قصارى جهده في دعم موقفه الثابت والمنشغل.

- اكتشفنا أن النقابي كان من الرواد المثابرين على الحضور إلى قاعتك السينمائية.

وشدّد على ضمير المخاطب، كما لو أن المكان كان في ملكي بالفعل.

- أنا بحاجة إلى المعدات كي أستطيع مزاولة عملي - قلتُ وأنا أحاول أن أخفي امتعاضي - ثم إن قاعة السينما مغلقة منذ أربعة أشهر، وحسب علمي لم يحدث أي شيء - أضفتُ قائلًا.

تظاهر بالاهتمام بمطالبي، لكني حين ألمحتُ مرة أخرى أنني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أريد الفيلم للأسبوع التالي أومأ بحركة من يده، قاطعني وسط الجملة وانهال عليَّ فورًا بتصريحات حول خطورة السينما. كرر تطلعه للعدالة، واهتمامه الصادق بإلقاء الضوء على الجريمة، ومحاربة الانفلات من العقاب، ثم فتح قوسًا ليبين أنه قد تلقى بدوره، مثل الأستاذ الشهير الذي قتل في قاعة العرض، تهديدات مجهولة ومتكررة، وللحظة بحث عن صورة يعزز بها اقتناعه بالأخطار التي يمكن أن تحذق، انطلاقًا من الشاشة، بأي متفرج قابل للانبهار، كأي شخص وحيد محروم من الحنان. استعمل في كلامه تفخيمًا مفرطًا فشككت في أنه كان خطابًا مدروسًا، كما لو أنه، في الحقيقة، يستعرض سيلًا قديمًا من الحجج أمام قاعة المحكمة.

ـ وقعتْ حالاتٌ ـ قال ملحًا ـ كان فيها المجرمون يستلهمون أفكارهم من أحد الأفلام ليقوموا بالقتل أو السرقة. إنها عواقب الإيحاء ـ قال مشددًا، وهو يتظاهر بمعرفة ما يقول ـ ثم إنك ـ أردف وهو يقول معتزًا بجملة جديدة تبدو وكأنه قد أخرجها من مختبر أفكاره ـ تعرف، يا سيدي، أن هذا الميدان ذريعة تُستعمل لتنفيذ الانتقام ولا أحد يستطيع أن ينجو من تصفية حسابات لو حرص الآخرون على تنفيذها حرصًا كافيًا. لقد وصلنا إلى نقطة لا شيء يحظى فيها بالاحترام غير العنف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صمتَ لحظة، كبح نَفَسَهُ وقرّب الكرسي من النافذة. ظننتُ أنه سيذكُر مثالًا يعزز به ملاحظاته لكنه ظل صامتًا، يتأمل الأغصان شبه الجافة في إحدى الأشجار. بعد ذلك نظر إليَّ ضاحكًا ثم راح يداعب قلمًا.

- إنها النسخة الوحيدة - قلتُ وأنا أزن كلامي، وأعي في الوقت ذاته غياب الحزم الذي بدت عليه حجتي الأخيرة.

هزّ كتفيه جوابًا على ما قلتُ. حدّق فيَّ دون أن ينبس ببنت شفة، فخمنتُ أنه ربما كان يتأمل، غارقًا في تفكير مفاجئ. وراء المكتب، كان بعض شفتين غير بارزتين، مُسطّحتيْن، كأنما رسمهُما مُصمّم هاوٍ، ففكرتُ حينئذ في عادة ربما يكون قد تعلمها من مشاغب سينيمائي متوتر. فجأة، وقف ثم دنا مني وربّت على كتفي. وأرفق حركته بابتسامة مسامحة.

- ما هو اسم الفيلم؟ - سألني بعد تأوهٍ طويلٍ.

بدا لي أمرًا مضحكًا أن ينسى عنوان الفيلم بعد كل تلك النصائح التي قدمها لي كي لا أكون ساذجًا، وإلحاحه الشديد على أن الفيلم دليل أساسي لتسليط الضوء على القضية.

- جوديكْس - أجبتُ وأنا أنهض.

- جوديكْس - ردّد مستغرقًا في أفكاره.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يُضفْ شيئًا آخر، ثم قادني نحو الباب. شعرتُ بضغط أصابعه على مرفقي الأيسر. قبل أن أغادر واساني بنبرة متسامحة بجملة أو جملتين خدّاعتين:

ـ لا تشغل بالك. سأتكلف بالفيلم وأعتني به حتى يتضح كل شيء.

مدّ لي يده وسألني:

ـ أنت لن تذهب بعيدًا جدًا، يا سيدي. أليس كذلك؟

ـ لست أدري. لن أذهب بعيدًا في الوقت الحاضر. لكني، وجدتُ شيئًا ما في سانتوارْيو ـ أجبتُه دون رغبة كبيرة.

ـ إنه مثل هذا المكان تقريبًا. كما ترى، استطعتَ أن تجد عملًا بأسرع مما كنتَ تنتظر ـ قال وهو راض على ما يبدو بما كان يعرضه عليَّ من تضامن سريع.

لن تكون تلك هي آخر مرة يحاول فيها أحدهم أن يقنعني بأن أي شيء قد يكون دائمًا أحسن من لا شيء، وأن أي تلفيقة تكفي لتمحو أي إفلات من العقاب. كان واضحًا أنه لم يكن مباليًا بالأسباب الحقيقية لجريمة القتل ففكرت، بشي من الانزعاج، أنني، مثل القتيل، قد لا أشاهد بدوري الفيلم مرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخرى.

*

تقدمتُ بضعة أميال، ورأيتُ أنه ما زالت تفصلني نصف ساعة عن موعدي مع كورطيث. دخلتُ إلى أحد المقاهي وطلبتُ بيرة. وفجأة، داهمني اندفاع غامض بأن أتصل بكريستينا. افتراقُنا، قبل ليلتين، كان قد انتهى بمحاولة حرجة لتحديد ذلك السبب الغامض للحماس الذي جمعنا خلال الشهور الأخيرة، تمامًا كما يحدث عادة في الأفلام التي كنا نعشقها معًا. تذكرتُ ذلك القلق، المتوتر نوعًا ما، الذي تجرّدنا به من ملابسنا، كل واحد من جهته وفي صمت، وبنفس الضحكة المتوترة التي رافقتنا في المرة الأولى حين انتهينا معًا فوق السرير. كررنا نفس الحركات وضربات اليد المتسارعة كالعادة، تُحركُنا رغبةٌ متوترةٌ، كما لو أننا نستجيب لسحر ما. كنتُ مقتنعًا، دون أدنى شعور بالندم، أن العجلة قد عوضت في النهاية غياب اللباقة في مناوشاتنا الجنسية، على الأقل على الطريقة المتستدامة للابتكارات الجيدة التي كنا نجدها في الشاشة، في عناوين مثل قنطرة على الهاوية أو الحديقة المعادية أو نوافذ الليل، أفلام ميلودراية غريبة تعلن من أول صورها عن جو فانتاستيكي من الرؤى الغامضة، مع ممثلين يتميزون بالتهريج، وكثرة الحركات،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تائهين في زمن وهمي، يحملون معهم أسرارًا كنا نعتبرها أسرارنا أيضًا. لكن، رغم الهجر القليل الذي ميز لقاءاتنا، فإنني لم أكن قريبًا جدًا من أحد كما كنتُ قريبًا من كريستينا.

خرجتُ عازمًا أن أبحث عنها. كنتُ أعرف دائمًا أن جرأتي لن تسمح لي سوى بغواية امرأة من هذا النوع. امرأة لا تملك أوصافًا لامعة، تغيرت روحها بفعل الصور بالأبيض والأسود، ولا شكل لنظراتها حين تشتعل الأضواء، مشدودة إلى ما يشبه إيحاءً دينيًا ومؤثرًا، مثل عبادة تكبح رغباتها الحقيقية حين تلتقي بي في ليلة من الليالي أو عند نهاية الأسبوع، بعد قضاء خمسة أيام وهي تحلم خلف طاولة متجر لبيع الألبسة الجاهزة. رغم كل هذا، وبعد مجهودات كثيرة، تمكنا من بناء قصة فيها روابط قريبة من الحب، لا تعج بالأيام المجيدة أو قصص الحب الحارقة كما في السينما، لكنها ربما تكون مادة لحلم ما في المستقبل قد يتجسد، مثل أي ظل من ظلال الحنين، عند بداية شيخوخة تصر على ترقيع الماضي وتصحيحه.

توقفتُ على بعد ربع ميل من منزلها وانتظرت مستندًا إلى شجرة. رأيتُ بعض الناس يمرون في الشارع، إلى جانب الظل. نزل الحرّ وصارت السماء داكنة. تخيلتُ حينها كريستينا تشاهد التلفاز ضجرة رفقة أمها في صمت. تذكرتُ يديها الغليظتين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والقصيرتين، ونهديها الناتئين، ونبرة صوتها الخفيضة، وذلك الحَرْق الغريب فوق لوح كتفها الأيسر، علامة من زمن الطفولة على شكل مُعيّن لم ترغب قط في أن تحدثني عنها، وتبدو كأنها ترسم شعار زاوية مظلمة من زوايا وجودها. وكم تخيلتُ لأكثر من مرة أنه هناك قد رُسم على جلدها الزيتوني ذلك العنصر البارز الذي ربما يكون زينة تجعل منها بطلة غامضة، وقد يكون هو ذلك العنصر السري والحيوي الذي يمنحُ قلبَها القدرة على الانخراط في الحب بكل حماس. لم أدْرِ إن كنتُ أستطيع أن أقول لها كل ذلك، وإن كنتُ أتوفر على ما يكفي من الجلاء الفكري لأعترف لها بهذا النوع من الإدراك الغرامي، لكني انتبهتُ ليس فقط لأنني وصلتُ في وقت غير مناسب، بل للاندفاع الذي قذف بي إلى هذه الزاوية، قبل دقائق، واكنه فقد قوته، واقترب بسرعة من محاكاة ساخرة. نظرتُ إلى الساعة وقررتُ أن أعود إلى النُّزل.

*

لم يصل كورطيث إلا بعد الساعة السادسة والنصف. قضى مدة في الورشة من أجل فحص شيء ما في فرامل الشاحنة. كنتُ قد أخذتُ، بمساعدة أحد جيران غرفتي، العلب والحقيبة إلى قاعة الاستقبال. قرر كورطيث أن يقبل قهوة أخرى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قبل الشحن فاغتنمتُ الفرصة لأودع الناس الذي يشتغلون في المطبخ. ثلاث نساء ورجل. وعدتهم أن أعود قريبًا. رأتنا صاحبة المحل نضع الأغراض في الجهة الخلفية من الشاحنة وحين أقلعنا بالكاد حركت يدها، دون قناعة حقيقية، كما لو أنها بدأت تخرج من خَدر طويل.

ـ الليل صاف ـ قال كورطيث عندما غادرنا سانْتا تيريسيتا.

نظرتُ من النافذة، ورغم أنني بحثتُ بإمعان لم أستطع رؤية النجوم. كان الحرّ قد نزل.

قطعنا الكيلومترات الأولى في صمت، منتبهيْن إلى الطريق الضيقة أمامنا، من دون خطوط تحديد، مع حركة سير خفيفة، تنيرُ جوانبَها أضواءٌ قليلة منبعثة من الشاحنة. وعلى كل جانب الأشكال نفسها غير المنتظمة وغير المتساوية من النباتات التي تعلو كأنها أسوار وسط الظلام. بعد منعرج حاد، تركنا خلفنا آخر بريق يلمع في سانتا تيريسيتا. في الأيام الأولى، اعتقدتُ أن الأمر يتعلق بمكان حلو وهادئ، بجوه الصحي وهوائه الشفاف، حيث الناس يجتمعون بغرض واحد يتمثل في إقامة وتوطيد أي شكل بسيط من أشكال الحب البَنَوي والغريزي، رغم أن ذلك قد يبدو ساذجًا أو شيئًا ما سابقًا لأوانه. منطقة، في نهاية الأمر،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محمية من التدخلات الخطيرة. لكن، لم يمض وقت طويل قبل أن تتأكد مرة أخرى من عدوانية الحرب التي لا تنتهي، تضرب أطرافها بأمواج وآثار لم تكن معزولة إلا ظاهريًا، مثل جريمة القتل في قاعة السينما. ربما لهذا السبب لم تكن ترافقني لحظتها أية نوبة حنين، رغم كريستينا وحصص العرض اليومية التي انخرطتُ فيها بعناية وحماس، مثل من ينخرط في طقس من الطقوس. لم أكن أشعر بأي إحساس دائم يساهم في تسلسل صارم لحياة ذات حركة دائمة، تتلهف للمغامرة. شيء شبيه بهذا حدث لي وأنا أغادر بوغوطا، قبل حوالي خمس سنوات. كان التحسن الفوري للمصير الذي كنتُ أحلم به، بعد أن غادرت المدينة، لا يزال مخادعًا وغير واضح.

*

بدأنا ننزل. كان كورطيث يقود بيد واحدة، ذراعُه ممدودة وأصابعهَ تشد بقوة على المقود. وفي المنعرجات كان يستعين بيده الأخرى، دون أن يرفع تمامًا ذراعه المستندة إلى إطار النافذة. كانت الريح تدخل منعشة ومن حين لآخر يمكن سماعُ صوت الزيزان.

- كيف مرت أمورك؟ - سألني بعد أن تجاوز شاحنة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- تقريباً.

أخذت السيجارة التي عرضها عليَّ التو. بما أنني لم أدخن منذ مدة سحبتُ الدخان بصعوبة وشعرتُ بشيء من الدوار بعد الرشفات الأولى.

- هل عرفت في النهاية من كان القتيل؟ - أراد كورطيث أن يعرف دون أن يكف عن النظر أمامه.

- كان أستاذًا. سبق لي أن رأيتُه في السينما عدة مرات. كان يحب أن يعيد مشاهدة نفس الفيلم. يومئذ دخل ليعيد مشاهدة الفيلم للمرة الرابعة أو الخامسة منذ أسبوع العرض الأول. حسب المكلف بالقضية، يبدو أن القاتل أيضًا كان من هواة السينما.

لزم كورطيث الصمت ورأيتُه يحرك رأسه. ذراعُه الجامدة جعلتني أفكر في تمثال من الجص. تركت النصف الأخير من السيجارة يحترق ببطء بين أصابعي وحين احترق وضعت العقب في المطفأة. كان كورطيث قد رمى عقب سيجارته من النافذة. قضينا مدة أخرى دون كلام. ومع أولى العقبات التي صادفناها فقدت الشاحنة قوتها فاضطر كورطيث عدة مرات إلى نقل السرعة من الثانية إلى الأولى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ماذا كان عنوان الفيلم المعروض؟ سألني حين خَفّت حدة العقبات.

وضع السؤال دون فضول كبير، ولا شك أنه كان يجهد نفسه ليجد طريقة يملأ بها فترات الصمت ومواصلة الحديث.

- جوديكْسْ.

لم يقل كورطيث أي شيء واندفع إلى الأمام، كما لو أنه ينتبه إلى صوت جديد يصدر من المحرك.

- إنه فيلم قديم - أوضحتُ - وجدته موضوعًا في مستودع قديم في بوغوطا. كان في ملك عم أحد أصدقائي، من هواة الجمع أو شيء كهذا. أنقذت الشريط من الضياع وبعد وقت قصير بدأت أعرضه في القاعات الصغيرة...

كنتُ على وشك أن أضيف شيئًا آخر، لكني شعرتُ أنني أفقد الهواء وأحسست فور ذلك بانقباض يضغط على صدري. ظننتُ، دون أن أقوم بأي حركة مفاجئة، أن الأمر يتعلق بانقطاع في التنفس، واعتقدت، بكثير من الدهشة وقليل من الخوف، أنني سوف أسقط، بين فينة وأخرى، مغمى عليَّ إلى جانب كورطيث. فعزوتُ ذلك الاختناق المفاجئ إلى السيجارة التي أطفأتها للتو وحاولت أن أستعيد نَفَسي وأنا أتلقى على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وجهي الهواء القادم من النافذة. كان عرق بارد ولزج يغطي كفّي يديّ. يبدو أن كورطيث لم ينتبه إلى ذلك الانقطاع المفاجئ في دورتي الدموية، بل تمكنت من سماعه وهو يسألني عن موضوع الفيلم.

- إنها قصة انتقام - أجبته حين تمكنتُ من التنفس دون صعوبة.

حينئذ انتبهتُ إلى أن كورطيث كان ينتظر جواباً أكثر وضوحًا. عدّلتُ جلستي في الكرسي وحاولت وصف ما قام به البطل، جوديكْس، وهو شخص بارع في فن الأقنعة، من خطوات، لينتقم من بنكي فاسد أدى بوالده إلى الانتحار. ساعدتْه لاعبةُ عقلة في السيرك، فظل يبحث دون هوادة عن تعويض لآلامه. ذات ليلة ظهر يرتدي فْراكًا فوق عشب قَصْره. كان لوحده، واقفًا، ويحمل في يده حمامة ميتة، بينما رأسه مخفي وراء قناع على هيئة نسر ذهبي. في هذا المشهد، حين سيتحقق، أخيرًا، الأمل في الانتقام، هناك لقطة سينمائية بانورامية عمودية تنطلق من قدمي جوديكْس، وتصعد ببطء عبر جسده لتُظهر القناع، في نهاية الحركة. رأس طائر في جسد إنسان يرتدي ملابس سوداء ويحدق في المتفرج. فجأة، يستدير جوديكْس، وبخطى هادئة، وقورة، يلج القصر. يصل إلى صالة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بها أشخاص آخرون يرتدون فْراكات ويضعون أقنعة، كلهم برؤوس طيور، يؤدون رقصة فالس بطيئة. يبدو فعلهم جنائزيا بعض الشيء. فجأة، وبعملية سحر غريبة من جوديكْس، تُبعث الحمامة من جديد، وفي الثانية نفسها، يسقط البنكي الدنيء صريعًا.

تحدثتُ بجمل متقطعة، أستنشق الهواء بشيء من الصعوبة، أضغط على يديّ متوترًا، كما لو أنني أتنبأ باحتباس جديد في رئتيّ. لكن، عندما انتهيتُ، اكتشفت أنني استطعت أن أخلص، دون قصد ولي أنا فقط، سحر ذلك الفيلم العجيب، الذي يمنحُ، أحسن من أي فيلم آخر، معنى لترحالي السينمائي الذي لا يستقر على حال، ويستحث رؤاي منذ أن تركتُ كل شيء وانطلقتُ في الطرقات، أحمل مسلاطًا من فئة 35 ميليمترًا وبعض الأشرطة، وأظن أنني قد أفلتُّ من مجرى الحياة بين معاهد بوغوطا التافهة. نظرتُ إلى وجه كورطيث من الجانب فشككتُ في تمكنه من فهم ذلك الانخطاف العابر، الشبيه بذلك الانخطاف الذي داهمني في شارع قرب بيت كريستينا. ربما كان بإمكاني أن أضيف شيئًا آخر عن نهاية فيلم جوديكْس، لكني ركزتُ على ضبط تنفسي بشكل تام. نظرتُ من النافذة فلاحت لي بعض السحب وهي تتراكم في السماء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ورغم البرد احتفظت بزجاج النافذة مُنزلًا.

خلال العشر أو الخمس عشرة دقيقة التالية بقينا صامتيْن، ساهميْن في أضواء الطريق المقفرة.

- إنني لم أذهب إلى السينما منذ سنوات - قال كورطيث بعد لحظة. أخذ نَفَسًا عميقًا وبحث عن سيجارة أخرى - كانت آخر مرة في بوغوطا - أردف بعد بضع رشفات عميقة.

صمت لحظة فانتظرتُ أن ينتهي من ترتيب ذكرياته.

- أظن أنه في الفيلم يظهر أزواجٍ من العجزة يرقصون قَرب نهر، عند أحد المرافئ - تابع قائلًا - الرجال والنساء يرتدون معاطف وقبعات. الموسيقى بطيئة نوعًا ما، تشبه قطعة بوليرو. يرقصون في داوئر، كل زوجين خلف زوجين آخرين، ولا أحد يتكلم. وحين تنتهي القطعة يصفقون. لا أذكر شيئًا آخر. - بعد هذه الجملة أطْلقَ ضحكة صغيرة، كما لو أنه يتهكم. ومن نبرته، تخيلتُ أنه كان يفكر بصوت عالٍ. انتصبت الطريق مرة أخرى فارتجّ المحرك بقوة. احتفظ كورطيث بيده المينى على ناقل السرعة وبعد حين أردف من دون حماس: شيء مجنون.

*

فجأة، وبعد منعطف آخر صاعد وحاد بشكل خاص، صادفنا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جسم أسود كبير على جانب الطريق. خفف كورطيث السرعة وسرعان ما رأينا ظل رجل وسط الطريق يلوّح بخرقة بيضاء في يده.

- ما العمل؟ - سأل كورطيث كأنه يستيقظ وبدَّل السرعة إلى الدرجة الأولى ليتفادى ذلك الشخص.

اكتشفتُ على يميني، وسط الظلال، شاحنة ذات محورين بغطاء محرك مفتوح. قرر كورطيث أن يتوقف بضعة أمتار بعيدًا. ركن الشاحنةَ بلطف، دون أن يوقف المحرك ثم شغّل المكبح اليدوي. نظر لبضع ثوان عبر المرآة العاكسة، كما لو أنه يريد أن يدرس حركات الآخر، ثم انحنى ليُخْرج من جارور السيارة مصباحًا يدويًا وشيئًا آخر ملفوفًا في قماش غليظ ذي لون أحمر. لم أستغرب أن يتعلق الأمر بسلاح. وفور ذلك، رمى بالسيجارة من النافذة، وضع بسرعة الرزمة الصغيرة فوق السطح، والمصباح اليدوي بين رجليه ثم أطلق مقبض المكبح. وصل الرجل راكضًا وهو يلهث قبل أن يتكلم.

- مساء الخير - قال محييًا قرب كورطيث.

أجبناه معًا في الوقت ذاته. حينئذ تراجع إلى الخلف وأظهر وجهه. تمكنتُ في الظلام من رؤية شارب كثيف وأجمة من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشعر الأسود، المجعّد والمُتناثر. حاولَ أن يبتسم.

- إلى أين أنتما ذاهبان؟ - سأل.

- إلى سانْتوارْيو - أجابه كورطيث.

بدا كأن الجواب قد أربكه. نظر إلى الأسفل، نحو الشاحنة، ثم قال:

- سأظل عالقًا هنا حتى بعد غدٍ. إلى أن تظهر الرافعة أو... - وترك الجملة معلقَة، ثم مرّر الخرقة البيضاء على وجهه وأردف مغيراً نبرة صوته: المشكلة أنني أحملُ امرأتين ولا أظن أنهما تستطيعان البقاء هنا معي...

لزم لحظة صمت أخرى ثم نظر إلى داخل الشاحنة الصغيرة.

- أود أن أعرف إن كان بإمكانكما أن تأخذاهما معكما - قال.

نظر كورطيث إلى الأمام فظننتُ أنه كان يفكر. حدجني بنظرة خاطفة ثم لعب لبضع ثوان ببدّال السرعة، في نقطة محايدة. مرّر الآخرُ من جديد الخرقة على عينيه كما لو أنه يتصبب عرقًا.

- وهل تتجه المرأتان إلى سانْتوارْيو؟ أراد كورطيث أن يعرف.

- نعم - أجابه الرجل وانتظر دون أن يتحرك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ حسنًا. نادِ عليهما ـ أمره تقريبًا كورطيث بعد صمت قصير.

وبينما كان الآخر يعود رفقة المرأتين، أعاد كورطيث إلى محفظة السيارة ما كان يخبئه في القماش.

ـ ما رأيك؟ ـ سأل دون أن ينظر إليّ ثم أشعل الضوء داخل السيارة.

ـ لستُ أدري.

كنتُ على وشك أن أضيف أنني لا أرى أي شيء غريب في أخذ المرأتين، لكن الآخر كان قد عاد وظل ينتظر في الخارج. أمرهما كورطيث أن يمرا إلى الجهة الأخرى فنزلتُ على الفور لأحرك مسند الكرسي. كانت إحدى المرأتين تلفّ رأسها في شال أسود وحين أمسكتُ بذراعها لأساعدها على الصعود شعرتُ بها ترتعش. أما الأخرى، وهي فتاة في الرابعة عشرة من عمرها، فكانت ترتدي لباسًا فاتحًا وسترة مفتوحة تصغر عن جسدها. لم تقدم التحية أي واحدة منهما، وبعد أن جلستا ظلتا جامدتين في كرسيهما، شبه متعانقتين، وعيونهما مسمرة على سطح السيارة. حين صعدتُ كانت هناك رائحة عرق قوية.

ـ كم أدفع لك، يا سيدي؟ ـ سأل الشخصُ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا شيء - أجابه كورطيث، ثم رد بتوديع قصير، وأقلع.

لم يتكلم أحد خلال نصف الساعة التالية. كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة فشعرتُ بشيء من الجوع. فكرتُ في التشنج الذي تسلل إلى صدري قبل دقائق، كأنه خُثارة هائلة سدّت عليّ منافذ الهواء. وما يرعبني أنني لا أملك تفسيرًا للأمر. لم أكن قط شخصًا قوي البنية لكني ظننتُ أنه من السابق لأوانه أن أعزي ذلك للسن. تذكرتُ الوصف الذي قدمته لكورطيث عن السقطة الصاعقة للبنكي فافْرو في الشاشة، وهو موت يستجيب لظاهرة عبثية، وتصادف، في بضع ثوان، مع موت الأستاذ، هناك في الأسفل، في الصفوف الأمامية؛ ثلاث طلقات عن قرب في الظلام، كما لو أن جوديكْس، من داخل الشريط، قد دبّر اغتصاب هذه الحياة الأخرى بحركة سحرية من الحمامة التي أحياها، فيما يشبه بشارة مضاعفة وشريرة.

*

كان الضباب أمامنا قد بدأ يرتفع شيئًا فشيئًا كأنه حائط. احتفظ كورطيث برأسه خارج النافذة حتى يتأكد من اتجاه الطريق. فجأة، سمعتُ خضخضة خفيفة في الكرسي الخلفي. لبضع لحظات كانت تصدر همهمات متوترة، سريعة، في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أصوات متبادلة تعلو وتنخفض وسط هدير المحرك. بعد فترة صمت سمعتُ بكل وضوح أن أصغرهما كانت تطلب منا أن نتوقف. نظر كورطيث عبر المرآة فانتبهتُ إلى أنه كان محترزًا من ذلك الصوت الوديع الذي حدثْنا به.

ـ كيف؟ ـ سأل وهو يخفف السرعة.

ـ أنا مضطرة لأنزل ـ قالت الفتاة بخجل.

ـ من؟ ـ سأل كورطيث دون أن يكف عن النظر عبر المرآة، وهو ربما يبحث عن عينيْ الفتاة. بدا السؤال غبياً لكن النبرة كانت لطيفة.

لم يأت أي جواب، فقط سمعنا لهاثًا خفيفًا. تابعنا تقدمنا ببطء. كانت الطريق تبدو أقل ارتفاعًا، لكن الضباب ظل مستمرًا. كبح كورطيث تنفسه ثم فرْمل بهدوء ظننتهُ متكلفًا.

خرجتا فاستطعتُ أن أرى، رغم أنني كنت وسط سحابة ليلية، أنهما تسللتا بين الأشجار القصيرة، على بعد عشرة أمتار نحو الأسفل. ترك كورطيث المحرك مشغلًا وعرض علي سيجارة أخرى. أخذتها منه دون رغبة حقيقية في التدخين. كان يفزعني استياؤه الواضح. دخّنا في صمت. حاولت أن أقوم برشفات ضعيفة وقصيرة. كان الضباب يتحرك وسط أضواء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشاحنة الصغيرة. تخيلتُ أننا كنا نتقدم، رغم توقفنا، بين منعرجات عالم مغمور.

ـ أنت من بوغوطا إذن، يا سيدي ـ قررتُ أن أُعقّب بعدما أطفأتُ السيجارة، فقط لأكسر جدار الصمت.

أطلق كورطيث ضحكة صغيرة وسحق العقب في المطفأة. مرّر يده اليمنى على جبينه كما لو أنه كان بحاجة ليتخلص من فكرة سيئة.

ـ عشتُ هناك لبعض الوقت ـ قال موافقًا ثم نظر من جديد عبر المرآة.

من جديد كان يبذل جهدًا كي يجيب على أسئلتي، متظاهراً بأنه يهتم بما أقول. نظر بإمعان إلى يديه المُتشبّثتيْن بالمقود، ثم ضحك ثانية.

ـ عشتُ هناك بضع سنوات مع زوجة والدي ـ أردف خافضًا صوته ـ لم تكن العجوز تريدني سوى ساعٍ لقضاء أغراضها. لو أنك عرفتها يا سيدي... عندما كانت أقوى مني، كان يحلو لها أن تشبعني ضرباً من حين لآخر... كان الجيران يسمونها "الببغاء".

كان يهم بقول شيء آخر لكنه تمالك نفسه. أظن أنه كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يكبح شتمًا أقوى. بقينا صامتيْن لحظة أخرى. كانت أضواء الشاحنة تضيء حركة الضباب السريعة. وكان اهتزازُ المحرك هو الصوت الوحيد وسط الليل. لم أكن قادرًا على التفكير في سؤال آخر. كنتُ متعبًا، ولديّ رغبة في الوصول إلى سانْتاورْيو في أقرب وقت.

- لم أر تلك الببغاء اللعينة مرة أخرى - قال كورطيث حينئذ ببرودة، كما لو أن ظل استياء قديم، ضائع في الزمن، قد داهمه للتو.

أربكني ما رافق تلك الجملة من انزعاج. كان المكان يبدو مواتيًا للنبش عميقًا في تفاصيل ذلك الاعتراف، كما في المشاهد الأخيرة من فيلم جوديكْس، لكن ذلك قد يستوجب مجهودًا كبيرًا وبعيدًا عن الظروف التي تجمعني، لمجرد بضع ساعات، مع كورطيث. وربما لو طورت ذلك الحوار، لكنتُ مضطرًا للمجازفة بتأويل أحزان الماضي أو المستقبل، وهذا هو الأسوأ.

*

حتى أكف عن التفكير، وبما أنه قد انقضت أكثر من خمس عشرة دقيقة على نزول المرأة والفتاة، اقترحتُ أن نخرج لنبحث عنهما. أطلق كورطيث بضع لعنات وبحركة عنيفة من يده

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أوقف المحرك.

أخرجتُ المصباح اليدوي الذي أحمله في الحقيبة وأخذنا نمشي في الاتجاه الذي سلكته المرأتان. قررنا أن نفترق ونتوغل داخل الأجمة من جهتين مختلفتين. اتفقنا أن نعود إلى الشاحنة إن لم نجد أي شيء بعد نصف ساعة. وقبل أن يبتعد، أومأ كورطيث بحركة سريعة من يده، كما لو أنه يطرد حشرة عن وجهه.

وبنيما أنا أتفحص النباتات الكثيفة والمتشابكة، أحاول أن أجد وسط الضباب تلك الثغرة الممكنة التي مرت عبرها المرأتان، تذكّرتُ المشاهد الأخيرة من فيلم القائد النائم، التي تدشن لتوغل القائد فرانز أراغو البطيء والمحفوف بالمخاطر في أسرار عالم خفي عن أهل زمانه. كان القائد يفتح كل خطوة بضربات الفأس وسط غابة من الطحالب والسّرغس، ويقدم كُلَّ رِجْل بصعوبة قصوى، وقد أنهتكته الأحذية الحديدية وهيكل جهاز الغوص الضخم. كان ضوء مصباحه اليدوي، مثل ضوءِ المصباح في يدي، يخلق أثرًا خياليًا على أعشاب البحر القوية. هناك في الأعلى، على ظهر السفينة، كان أحدهم قد صنع له مقلبًا خبيثًا، انتقامًا لأمر قديم، وكان أراغو يلاحظ، بوجه أظهرته الكاميرا شبه ممتقع، أن زجاجة الأكسجين تسقط

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عند قدميه. وقبل أن يفقد الوعي تمامًا، ظن أراغو أنه يرى ملاكًا ذا جمال لا يصدق، يرتدي ثيابًا أرجوانية، يدنو من زجاج جهاز التنفس، يدفعه تيار لا يُرى، وبحركة ودودة كان ينطق بكلمات غامضة. بعد ذلك، يختفي جسد أراغو في الأعماق السحيقة، ويذهب نحو منظر ومنطقة اللاعودة.

مشيتُ بخطوات غير واثقة، أرسم دوائر صغيرة، وأنا أتوغل شيئًا فشيئًا داخل التل. لم أجد آثار أقدام. لم يكن ثمة ما يؤكد أن أحدًا قد توغل داخل المكان. لم أجرؤ على أن أنادي كورطيث. فكرتُ أنني لو قمت بذلك قد أوقظ، مثلما فعل القائد أراغو، حضورًا من العالم الآخر. أردتُ أن أضحك من أفكاري، وعندما خمنتُ أنه مرت نصف ساعة قررت أن أعود. فجأة، قفز ظل بجانبي. انفزعتُ من الحركة الصامتة وبحثت وسط الضباب فرأيتُ الأوراق تتهدْهَدُ. وبما أنه لم تكن ثمة ريح تقريبًا خمنتُ أن الأمر يتعلق بالفتاة لأنني أشك أن المرأة تستطيع أن تتحرك بكل تلك السرعة. أظن أنني تابعت السير حيث اختفى الظل، لكن بعد أن تقدمت بضع خطوات صارت الأجمة غير قابلة للاختراق. تشبّكتُ من دون قصد، وبفزع متزايد يكاد يكون طفوليًا، حاولت أن أتحرر بضربات من يديّ. شعرت أن ظهر إحدى يديّ قد أصيب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بجرح. لحْظَتَها سمعتُ في الهواء ضربات سلاح حادة؛ سلسلة من الطلقات النارية التي كان يخففها الضباب، ما جعل من المستحيل بالنسبة لي أن أعرف إن كانت بالقرب مني أم بعيدًا. حين تمكنتُ من التراجع حاولتُ أن أستعيد هدوئي.

اندهشتُ للسرعة التي غطى بها العرقُ جبيني. حينئذ، وبينما أنا أحاولُ أن أبحث بواسطة المصباح اليدوي عن أثر دم في يدي، سمعتُ وقع خطوات بين الأشجار. قبل أن أتمكن من أي ردة فعل، ارتسم ورائي ظلٌ على يميني، وبضربة جانبية قوية رماني فوق الغصون. نهضتُ على الفور واستنتجتُ، دون أن تمكن من تصور تفسير منسجم، أنني كنتُ ضحية هجوم شبح من الأشباح. لا أدري كم من الوقت بقيت جامدًا، وضوءُ المصباح اليدوي نحو الأمام، كما لو أنه منارة مُفكّكة. قلتُ، دون أن أرفع صوتي كثيرًا، إنه من الممكن أن أكون في حلم. وأن الضباب، والخوف اليومي، وموت الأستاذ المشؤوم، وعادتي اليومية في متابعة حالات درامية مستحيلة على الشاشة، كل ذلك جعلني عرضة لخبل وهلوسة. حين شعرت أنني أستعيد الوعي، اكتشفتُ أنني قد فقدتُ الأثر.

اضطررتُ للسير عبر خط متعرج قبل أن أخرج إلى الطريق وأسمع من جديد حركات كورطيث. ألقيتُ نظرة سريعة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأخيرة من حولي. لا شك أنني لو حكيت لكورطيث ما جرى فإنه قد يشك في الحادث برُمّته. لم يكن يعجبه أي شيء مما كان يحدث مع المرأتين.

كان ينتظرني قرب الشاحنة ويصب قهوة من الكظيمة.

- لا شيء؟ - سألني وهو يقدم لي فنجانًا.

- لا شيء - أجبته وشعرتُ أن حرارة المشروب تمدني بهدوء مؤقت على الأقل - هل سمعت الطلقات؟

- أي طلقات؟

حينئذ ندم على أخذ المرأتين. فور ذلك، اتفقنا على القيام بجولة والبحث في الجانب الأسفل من الطريق. وبينما كان كورطيث يناور بالسيارة، تخيلتُ أن أحدًا يراقبنا في صمت، متسليًا، انطلاقًا من ظلام إحدى القاعات السينمائية.

- يستحيل - قال كورطيث، وبعد أن تقدم لحظة فرمل على جانب الطريق. أطفأ الأضواء والمحرك ودون أن ينبس ببنت شفة ألقى برأسه إلى الوراء. سمعتُه يتنهد.

دون أن أقول ذلك، استبعدتُ أن نكون قد قطعنا المسافة التي تفصلنا عن المنعرج الذي صادفنا فيه صاحب الشاحنة مع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المرأتين. كما أن فكرة اختفاء الشاحنة، أو أنها لم تكن أبدًا في الطريق بدت لي تعقيدًا فيه الكثير من المبالغة، تعليقًا إضافيًا لكنه غير مناسب لسيناريو غامض أساسًا. قدّرتُ ساعة من الانتظار الصامت تقريبًا. فجأة، بدأت تهب ريح قوية جعلت الضباب يتلاشى في غضون ثوانٍ معدودة. كما لو أن الأمر يتعلق بالإشارة التي كنا ننتظرها كي نتخلص أخيرًا من هذا النوع من المزاح الذي يتسبب في تأخرنا، أشعل كورطيث المحرك ثم عرّج عائدًا من جديد ليبدأ السير.

- مستحيل - أكّدَ، ورغم ملل الانتظار لم يجرؤ على زيادة السرعة.

بدا لي أيضًا أنه من المستحيل أن أساند احتجاجه، فبحثت، حينئذ، في ذاكرتي، بإلحاح لكن دون جدوى، عن فيلم آخر يشارك فيه الأبطال في الخيال دون خوف، منقادين وراء عدم تماسك حلم غريب. ربما تكون حماقة كهاته هي آخر صورة حملها معه الأستاذ إلى الأبد قبل أن يغادر الحياة، ثانية واحدة قبل أول طلقة، وقد رضخ، هناك في العدم، إلى الجمال القاسي، لكن غير المؤذي، الذي كان يقدمه له من الشاشة جوديكْس بسحره. رأيتُ كورطيث يحرك رأسه فظننتُ أنه كان يستعيد هدوءه شيئًا فشيئًا. ربما يكون ذلك الحدث المزعج قد انتهى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالنسبة إليه. لكن مع ذلك، فكرتُ لاحقًا أنه، بعد مرور أيام وسنين، قد يشعر بشيء من الخجل، وهو يقر أنه ذات ليلية عاين رفقتي، وأنا شخص لا يعرف عنه أي شيء، حدثًا غريبًا، مع اختفاء خارق.

*

في النهاية، وأنا أرى أول أضواء سانْتوارْيو، مِلْتُ، كما يحدث حين نريد أن نتحكم في حلم يداهمنا حتى في اليقظة، إلى تفسير بسيط، يُختزلُ في يقين موجز: لقد أخذت المرأتان طريقًا لا يعرفه أحد سواهما. فلا غرو، إذن، أن تحترزا منا. هذا كل ما في الأمر. لكنٍ، ورغم أنني لم أعتبر قط فكري ضحية سهلة للإيحاءات، شعرتُ بالخوف. فمكان المزحة وحدوثها وسط الضباب كانا يؤكدان لي شكوكي بأنني كنت أنتقل، في السنوات الأخيرة، عبر جغرافيا غير منطقية، في منطقة ذات حدود غير واضحة، ومن دون قوانين أرضية. حافَّة بأجواء عرض سينمائي رديء.

Page 64 / 171 (10) حدديكس
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكتف

بما أنه كان مضطراً لانتظار مارادونا، قرر أن يُحضِّر قهوة. المرأةُ التي كان تشتغل معه مساعدةً غادرت دون أن تودع. تذكّر أن الممرضة السابقة عادة ما كانت تمكث بضع دقائق بعد انتهاء العمليات، ورغم أنها غالبًا ما لا تستطيع قول أي شيء، فقد كانت حريصة على أن تبدو لطيفة معه. أما هذه الأخيرة، فبالكاد تتفوه بحرف أو حرفين حين تحييه. لم يكن يكترث لذلك. لقد كانت، في نهاية الأمر، امرأة فعالة، تفي بمواعيدها ولم يكن هو من عليه أن يدفع أجرها. ثم إن القواعد تقتضي ألاّ يَخْلِطَ أحد أو يتجاوز حدود عمله الخاص، وعليهما أن يتفاديا أي نوع من الحميمية، لأنه لو فعلا غير ذلك فقد يتعرضان لخطرٍ هُما في غنى عنه. لم يكن واحدٌ منهما ينادي الآخر باسمه الشخصي. هو يناديه الجميع "دكتور"، وهو الشيء الوحيد الحقيقي، لأن حتى اسم "مونسالبي" الموضوع على بطاقة تعريفه كان مزيفًا.

شعر بالبرد. جوّف كف يده حول الفنجان الذي لا يزال دافئًا، وأكمل الجرعة المتبقية من القهوة. فكر أن مارادونا تأخر أكثر من اللازم. تأخر أكثر من نصف ساعة. تخيل أنه علق في زحمة سير كثيفة وعسيرة بأحد الشوارع. لم يكن يريد أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ينشغل من دون سبب، لكنه كان منزعجًا. عَبَر القاعة واقترب من النافذة. رفع الستار الثقيل بعض الشيء. في الخارج، كان النهار صافيًا، لا غيم فيه. وكان الشارع مقفرًا، كالعادة.

*

مرت العملية الجراحية بسلام، من دون تعقيدات، مثل كل العمليات تقريبًا التي دأب على إجرائها في هذه الشقة الأخيرة. لكن، يومها كان يفضل مريضة أقل شبابًا أو، على الأقل، من دون هذين العينين اللتين بدتا وكأنهما تتوسلان إليه. لقد رأى الجسد الصغير، هشًا للغاية، بأعضائه التي لم يكتمل نموها تمامًا. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يقوم فيه مريض، غالبًا ما يكون امرأة، بالنظر إليه بحركة تنم عن الحزن، ويبدو أنه يقول له إنه يخضع لإرادته تكفيرًا عن ذنب خاص، دون حل، ليكون هو وسيطته للظفر بالعفو. لقد ألف هذا الأمر منذ مدة، وصار يعتبره حالة عادية. لكن، مع هذه المرأة التي قد لا تتجاوز اثنتين وعشرين أو ثلاثة وعشرين سنة، شعر بالرغبة في تعليق العملية، وخلال الساعتين اللتين استغرقهما في إتمامها، سيطر ارتعاشٌ خفيفٌ على يديه.

دخل من جديد إلى الغرفة وفي الظلام ظل منتبهًا إلى الإيقاع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المتباين لتنفس المرأة. أفزعه الاحترازُ المفرط الذي سيطر عليه وهو يدنو من السرير. كان يعرف أن المرأة لن تستعيد وعيها قبل ساعتين أو ثلاث ساعات. أخذ المعصم النحيف بين أصابعه وانتظر ضربات النبض. بالكاد ميّز خفقانًا خفيفًا. كان جلد الذراع باردًا، وبينما كان يدثره بالغطاء، لمس بأصبعه الكتف العاري. غطاه بكف يده، ثم تحسس، بنوع من العذوبة تقريبًا، تلك الاستدارة التي تبدأ عند الذراع، لكن ارتعاشة غير متوقعة أرغمته على أن يسحب يده، كما لو أن جرحًا قد انبلج في الجلد. ابتعد برفق، خائفًا من أن تستيقظ المرأة فجأة، بالفعل، وتفرض عليه مرة أخرى نظرتها المتوترة التي، دون أن يعرف حقًا سبب ذلك، يحدسها مثل عائق غير عادي يصعب تجاوزه، وتحاصره بالتماسها الصامت الذي قد يلاحقه بشكل خطير.

*

أخرجهُ وصول مارادونا من هذا النوع من المأزق، الذي تصور أنه طارئ، يشبه وعكة تحدث بعد العملية الجراحية. جلس الشخص دون رغبة على الكرسي الجلدي في القاعة وظل هناك للحظة دون أن ينبس ببنت شفة. نَخَر بقوة عدة مرات، كما لو أنه يريد أن يطرد من أعضائه الضخمة فائضًا من الهواء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يُزعجُه. تصور مونْسالْبي أنه لا داعي لسؤاله عن سبب التأخير، وانتظر أن يهدأ تمامًا. كان مارادونا يبدو له رجلًا وديعًا، رغم هيئته التي تشبه هيئة ملاكم. عرض عليه قهوة، لكن الآخر رفض بحركة من رأسه.

- هل تفضل عرَقًا؟ - اقترح عليه.

- حسنًا - أجاب مارادونا، وهو ينهض.

مشى مونْسالْبي حتى بلغ الرواق الذي يُستخدم حانة أيضًا وأخذ زجاجة. استلقى مارادونا مرة أخرى فوق الكرسي الجلدي، بعد أن خلع المعطف ووضعه فوق كرسي. وضع مونْسالْبي الكأس والزجاجة فوق المائدة في الوسط. وهو يضع الزجاجة خطرت لذهنه فكرةٌ غير واضحة، فأدرك فورًا أن لها علاقة بالبلّور الضخم وبالمرأة التي لا تزال في غيبوبة هناك في الغرفة الأخرى. قرر أن يبدأ حديثًا وأن يمدّده، حتى يتمكن من تحديد هدفه بكل وضوح. لكن، عليه أن يتخيل طريقةً ينتزع بها بعض الكلمات من مارادونا، الذي لا يميل كثيرًا إلى الكلام. نظر إلى باب الغرفة. كان هناك متسع من الوقت، فكّرَ. أخذ مارادونا جرعة أخرى لكنه لم يلمس الكوب الصغير. ظن مونْسالْبي أنه لا يزال غاضبًا. ربما يكون قد واجه طارئًا في الطريق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يمكن أن يبدأ بسؤاله كيف وصل إلى بوغوطا أو يطلب منه أن يحكي له قصة كُنْيته، لكنه سرعان ما استبعد الفكرة، لأنه يعلم أن الناس في مثل هذه الأمور يلزمون الحذر في مواقف دفاعية، ويظلون متيقظين أكثر من اللازم لأي خطوة خاطئة. ثم إن علاقته بمارادونا حديثة العهد، ولا تسمح بالدخول بسرعة في حوار أليف، علاوة على أنه لم يسبق لهما أن تحدثا أكثر من عشر دقائق متتالية، وهما ينتظران أن يستيقظ المرضى. ليس من باب الحكمة، إذن، أن يزعج ماردونا، فكّر. كان يجهل ردود فعله، ثم إن الرجل يبدو منزعجًا بالفعل.

ـ ما بك؟ ـ سأل وهو يتظاهر بنبرة من لا يهتم بالأمر.

لم يجبه مارادونا. أفرغ الكأس بجرعة واحدة ثم ألقى برأسه إلى الخلف، ونقر لسانه مع تكشيرة غريبة، تشبه الامتعاض، كما لو أن المشروب كان زِنخًا. ملأ مونْسالْبي الكأس مرة أخرى عندما وضعه الآخر على المائدة في الوقت ذاته.

ـ إيه! ليس بهذه السرعة! ردّ مارادونا وهو يُشدد على مقاطع الكلمات.

ـ أتريدُ ماءً؟

نظر إليه مارادونا بشيء من الاندهاش، وقد أربكتْهُ ربما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مجاملة مونْسالْبي المفاجئة.

ـ وأنت، ألا تشرب يا دكتور؟

نهض مونْسالْبي، أخرج كأسًا أخرى ووضعها فوق المائدة. قدم مارادونا شرابًا لكليهما وأخفى الاشمئزاز الناتج عن مذاق العرق، الذي تأخر قبل أن يذوب فوق لسانه. فكّر مرة أخرى في المرأة التي جاء مارودونا ليأخذها. سيقدم له، بكل تأكيد، آخر التعليمات، وسيسلمه الجواز وربما شيئًا من المال.

قد لا يكون أمرًا هيّنًا إلهاءُ مارادونا، فكّر ثانية. خلال لحظة أجهد نفسه للتفكير في سؤال آخر يمكن أن يكسر الصمت، ويسمح له برؤية طرف الخيط الذي يُمكِّنه من متابعة الأمور. لم يعرف كيف يسمي تلك الرغبة المجهولة التي ضغطت على بطنه، في إرباك الآخر ومنعه من أخذ المرأة. لم يكن بحاجة للتفكير مليًا كي يدرك أن التدخل قد يكون أفظع خطأ، وهو الخطأ الوحيد الذي لا ينبغي أن يرتكبه، والذي يمكن أن يتوقع مسبقًا نتائجه التي تعني موتًا محققًا. كان عاجزًا على فرض أي خاتمة، رغم أنه يعلم أنه في ذلك المساء كان قد تسلل إلى نفسه اختلالٌ، قلقٌ غريب ومزعج يلح على الصعود عبر صدره.

كان مارادونا قد وقف وراح يذرع الغرفة من زاوية إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخرى، يداه خلف ظهر ورأسه مطأطأ، منتبهًا لحركات قدميه. تأمل مونْسالْبي الجسد المنتفخ، والظهر العريض الذي تبرزُ منه ذراعان طويلتان وغليظتان؛ ثم تابع بعينيه الرِّجْلَيْن اللتين تنطويان مع كل خطوة في نفس الزاوية عند مستوى الركبة. فكّر في غوريلا ارتد لباسًا للتو، وظل حزينة بسبب ذكرى من ذكريات الغابة.

ـ ما بك؟ هل أنت حزين؟ ـ جازف بالسؤال مرة أخرى.

توقف مارادونا فجأة، وبوجه مندهش نظر إلى مونْسالْبي. لم يبدُ مكترثًا بالسؤال، لأنه سرعان ما استأنف التنزه ليقف عند النافذة، حيث رفع أيضًا الستار. وبما أنه لم يجب، أردف مونْسالْبي، واعيًا أنه يرتجل على غير هدى:

ـ إنني أراك محبطًا.

بذل مارادونا مجهودًا ليبستم، هذه المرة، وبحركة عنيفة ترك الستار ليسقط.

ـ لماذا سأكون حزينًا ـ ردّ، وهو يجلس مرة أخرى. ظن مونْسالْبي أنه تمكن من مباغتة مارادونا. كان الأمر يتعلق، من دون شك، بارتباك خفيف، لكنه ربما يكون كافيًا لشدّ انتباهه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ لست أدري. ربما يكون شيئًا أتوهمه ـ أكد ـ لكنك تبدو متعبًا، كأن شيئًا ما يزعجك منذ أن وصلْتَ.

ـ من أين جئت بهذه الفكرة يا دكتور ـ ردّ مارادونا، وهو يملأ الكأسين من جديد.

لاحظ مونْسالْبي أن تعليقه لم يرق لمارادونا، رغم نبرة التهكم في رده. كان واضحًا أنه لم تكن تدور بخلد مارادونا أي صورة، ولا أي تحذير بالخطر. وتصور أنه، بكل تأكيد، لم يكن يسري وسط الهلام الخفي في رأسه أي شيء يمكن أن يفزعه بسهولة.

*

اكتشف من الوهلة الأولى أنه كان يحاور رجلًا واثقًا من نفسه، يقبل أي نكبة بحكمة، وهو ما أبان عنه خلال الحديث المتزن، دون اندفاع، ربما كشيء تبقى من مهنته السابقة ممارسًا للتعذيب، معتمدًا، مثل الجميع، على مسدس ضخم يحمله في حزامه. رآه يكرر تلك التكشيرة بعد جرعة قصيرة، راضيًا، غير منشغل، مستعدًا للدفاع، بأي وسيلة، عن المنافع التي يجنيها من أعماله وتصفية كل من يشُكّ في طُرقِه. ورغم أنه لم يكن من خلاف بين الاثنين، فقد أدرك مونْسالْبي منذ اللحظة التي انساق عندها وراء الشك، دون سبب واضح، أن عليه أن يتخلص من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مارادونا. وكلما كان ذلك سريعًا، كان أفضل.

- وهذه، أين سيرسلونها؟ - سأل في الأخير، محولًا مجرى الحديث نحو الموضوع المعتاد. كان عليه أن يتقدم، لكن بتأنٍّ إن هو أراد أن يحول دون أن يفقد مارادونا هدوءه المعهود.

- إلى مدينة ميكسيكو. سوف تأخذ الطائرة بعد بضع أيام.

- مرة أخرى ميكسيكو؟

- نعم. لماذا؟

- كل هؤلاء الناس يتعرضون لمضايقات كبيرة هناك - لاحظ مونْسالْبي.

- وفي كل مكان - ردّ مارادونا دون اهتمام.

- ما يحدث هو... - بدأ مونْسالْبي، لكنه لم يعرف كيف يتابع كلامه.

- ثم إن هذا - تابع مارادونا قائلًا - أمر لا يعنينا. نحن نرسلهم، فإن تعافوا، فذلك جيد، وإن لم يتعافوا تقف المسألة عند هذا الحد. والآن، يا دكتور، من يبدو منزعجًا ومنشغلًا هو حضرتك.

- لا شيء من هذا - ردّ مونْسالْبي وهو ينهض - كل ما في الأمر أن امرأة هذا اليوم لا أظنها قد تخرج حتى من بوغوطا،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم...

ـ هذا ما سنعرفه في الأسبوع المقبل ـ قاطعه الآخر.

ـ لستُ أدري ـ همهم مونْسالْبي، وهو يتظاهر بالشك.

ابتسم مارادونا مرة أخرى، دون أن ينظر إليه. أشعل سيجارة ثم ارتشف جرعة أخرى.

كان مونْسالْبي يستند على حافة النافذة، فأمسك الستار بيده وظل يرقب بعينيه حركات ذهاب ومجيء ساعي بريد يمتطي دراجة هوائية. شعر بالجوع. بحث عن الساعة وحدّق في ظهر مارادونا. لم يبق وقتٌ طويلٌ قبل أن يبدأ جسد المرأة في إبداء ردود الفعل. تساءل إن كان الوقت كافيًا كي يُتمّ خطتُه الواهنة وغير المناسبة. "خطة"، ردد بصوت عالٍ ثم ابتسم.

فجأة، فكّر في كتف المرأة العاري. كان يدرك، أو حاول أن يقنع نفسه على الأقل، بأن قراره لم يكن له أي علاقة بالشفقة، كما أنه لم يكن ينتظر من المرأة شكرًا على ذلك. كان الأمر يتعلق، بالأحرى، بشطط أولي ومفاجئ، وكان متأكدًا أنه أمر عابر، كما كان يحدث أثناء فترة مراهقته، حين كان يخوض عراكًا في الشارع، فيتخلى عن ضرب خصمه رغم تفوقه. وكما في تلك الأيام، الآن أيضًا لا يهمه معرفة إن كان ما يشلّه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هو الخوف أو أن الأمر يتعلق باندفاع نابع من عدم الاهتمام. قد يستطيع، بكل تأكيد، استظهار ألف حماقة وحماقة تُستغلّ لتأويل وفكّ شفرات معنى ردّ فعله. إنه كل شيء سوى فعل طيب، ردّد في ذهنه. وكان مستعدًا للتخلص من مارادونا ليس لأنه يدعي أن ذلك أفضل، بل لأن الرجل أصبح عائقًا خطيرًا.

ـ وماذا لو قلتُ لك إن المرأة ليست في حالة تسمح لها بالسفر

ـ قال حتى لا يترك الحديث يبرد.

ـ لا أفهم ـ قال مارادونا. ثم استدار في كرسيه.

ـ لأنها واهنة جدًا.

ـ ماذا تعني؟ ـ ردّ مارادونا، واقفًا.

ـ إن المراة بالكاد تحملت العملية، والآن نبضُها ضعيف جدًا.

ـ لكنها لن تموت بين أيدينا. هل ستموت؟ سأله مارادونا وهو يدنو منه.

ـ علينا أن ننتظر حتى تستيقظ.

ـ كم يلزم من الوقت؟

ـ لا تتسرع ـ بدأ يقول مونْسالْبي وهو يبتعد عن النافذة ـ من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المكن ألا ينطوي الأمر على أية خطورة...

ـ إذا كنتَ ترى أنه ليس خطيرًا فلماذا تقول ذلك ـ لاحظ مارادونا منزعجًا.

ـ ليس هذا فحسب ـ همهم مونْسالْبي، مدركًا أن كلماته يمكن أن تثير أعصاب شخص أبكم وأعمى.

ـ دعك من الحديث بالألغاز ـ قال مارادونا معترضًا بعد لحظة صمت. وكان يبدو كأنه يجتر الجملة التي أطلقها مونْسالْبي للتو.

ـ من المرجح جدًا ألاّ تصدق المرأة، في نهاية الأمر، حكاية أحجار الزُّمرد فتخامرها الشكوك ـ قال مونْسالْبي معلقًا.

استلقى مارادونا فوق السرير، أشعل سيجارة أخرى وقال بمزيد من الهدوء:

ـ وماذا يهمنا؟ هل تظن أن المرأة سوف تخرج من هنا لتحكي قصتها لأول شخص تصادفه؟ ثم، إنني لا أظن أنها ستنسى الثلاثة آلاف بيسو التي وعدوها بها. إنك تعرف كيف هم الناس. يعيشون في الرعب. يحتاجون مالًا، لكن إن هم أطلقوا لسانهم نقطعه. أليس كذلك، يا دكتور؟ لا تقل لي إنك قد نسيت الأطفال. إنك لم تر قط أنهم صغار جدًا، أو أنهم لا يأكلون كما يجب. لا يهمك ذلك، كنت دائما تجري لهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عمليات جراحية...

ـ نعم، نعم ـ قاطعه مونْسالْبي ـ هدئ من روعك. أعرف ذلك، لا داعي لترديده على مسامعي، لكن لا أريد أن أتكلف بشخص يحتضر. لم يحدث لي هذا أبدًا، وإن استطعتُ أن أتفادى الأمر، سيكون أفضل.

ـ حسنًا، يا دكتور ـ وافقه مارادونا ـ لكن علينا ألا نرى أشياء حيث لا توجد.

لم يعلق موْسالْبي بشيء. أزعجته الجملة الأخيرة لمارادونا. لم يكن يستطيع أن يجيب على هذا النوع من الجمل الجاهزة، البلهاء، التي لا معنى لها. ومع ذلك، لم يستطع أن يتوقف عن أن يقول، كما لو أنه كان بدوره يرتجل مثلًا من الأمثال، بصوت منخفض:

ـ لم أر قط امرأة ترتعش بتلك الحدة. كأنها عجل سوف يصلبونه.

*

رانت لحظةُ صمت أخرى. كان مارادونا، بعينين شبه مغمضتين ورجلين ممدودتين ومفتوحتين شيئًا ما، يتظاهر بالنوم. ظنّ مونْسالْبي أنه قد مل من كل هذه الثرثرة. مشى حتى بلغ الحمام، وبعد أن غادره دخل إلى حيث كانت المرأة. هذه المرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تأمل الظل الأسود الجامد من الباب. أدرك، دون حزن، أنه لن يعرف أبدًا المعنى الحقيقي للَمْسةٍ فوق كتفٍ عارٍ يرتعشُ. لَمْسةٌ يستطيع أن يقدمها لشخص آخرٍ أو يتلقاها هديةً من الغير. لَمْسةٌ تسعفه على التفكير في الحب أو في رغبة واعدة وملغزة.

راقب للحظة الظل النائم، الذي أطلق تنهيدتين جعلتاه يتراجع ويخرج، كما لو أنهما كانتا دفعتين غير ملموستين. لم يكن يريد متابعة الحديث. عاد إلى المطبخ وسخّن فنجان قهوة آخر. كان عليه أن يظل متيقظًا، نصَحَ نفسه. ويعرف أنه في أي لحظة وحين يداهمه الاندفاع، دون سابق إنذار، فينهال على رقبة مارادونا، أو صدغه، أو جانبه بضربة مفاجئة ونهائية.

ظل مارادونا في الوضعية نفسها، رقبتُه مستندة إلى ظهر الكرسي. جلس مونْسالْبي من جديد فرفع الآخر رأسه على الفور، وحينئذ، ولأول مرة منذ أن كانا معًا، نظر إليه وجهًا لوجه. الجفنان منتفخان، والعينان صغيرتان لكنهما بارزتان، مع بقع صفراء حول القزحية الداكنة. وعلى الفم، شفتان دقيقتان، وعلامتان بارزتان ترسمان على وجهه ما يشبه قوسيْن غير مغلقيْن. خمّن أن الرجل قد يكون في الخمسين من عمره. بدا وكأن مارادونا انتبه للتفحُّص، ففرك عينيه بيده وسأل بعد أن تثاءب:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ هل ستستيقظ الآن؟

ـ قريبًا جدًا ـ أجابه مونْسالْبي وهو ينظر إلى الساعة.

ـ اللعنة ـ صاح مارادونا.

ـ هل أصابك الضجر؟ ـ سأله مونْسالْبي، دون رغبة، فقط ليتسلى.

ـ هل عدت إلى نفس الموضوع مرة أخرى، يا دكتور؟

ـ كلا. فقط أريد أن أتكلم ـ أجابه مونْسالْبي. لزم لحظة صمت ثم تابع، باحتراز:

ـ هل مارست هذا الأمر دومًا؟

قام مارادونا بحركة استهزاء من فمه وأشعل سيجارة أخرى. تأخر لحظة قبل أن ينفث الدخان ثم شدَّ حركة وجهه.

ـ لماذا تريد أن تعرف ذلك الآن؟

ـ لا تجبني إن كنت لا ترغب في ذلك ـ ردّ مونْسالْبي، وهو يرفع الزجاجة.

أفرغا الكأسين في الوقت ذاته فلاحظ مونْسالْبي أنه كان يضيع الوقت. سوف يذهب مارادونا حين يصل الآخرون ليأخذوا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطلب. لكنه، لم يفلح في اكتشاف أي مخرج. من الأرجح، افترض، أنه لن يحدث أي شيء. نهض وعاد إلى النافذة. كان يريد أن يحتفظ بمارادونا وهو يدير له ظهره. انتقل من جدار إلى آخر، دون أن يرفع عينيه عن رقبة مارادونا. حاول أن يتكهن إن كان هناك شيء قاطع في ركن ما من أركان الشقة. تفاقم توتّرُه. فجأة، خطرت على باله أول عملية جراحية قام بها. كان ذلك في مدينة كالي، داخل غرفة ساخنة بها ضوء قليل، وأجراها لمريض شاب، شخص يتضوع جوعًا تقريبًا، كان هو أول من نادى عليه "دكتور". رفع الستار. في الخارج، على الرصيف من الجهة الأخرى، كانت هناك طفلتان ترتديان بزّتيْن مدرسيتيْن، تتحدثان بانتباه، بينما كان يتأملهما بإمعان كلبٌ لا ينتمي لأية سلالة.

*

أفزعهُ صوت الزجاج. ترك مارادونا إحدى الكأسيْن لتسقط فوق زجاج المائدة. وكما لو أن ضربة الزجاج كانت تنبيهًا، أدرك أنه قد أخطأ وأنه لا يمكن أن يستمر في الخطأ. بالإضافة إلى هذا، كان يعتبرُ أمرًا غير مقبول أن يكون مضطرًا ليقدم تفسيرًا للمرأة، توضيحًا يبرر لماذا تمّ تحريرُها. تخيّلَ المشهد الممكن وعواقبَه جدّ الكارثية التي قد تؤدي به إلى موت محقق. في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نهاية المطاف، لم يكن هو ليغير المصير أو يتفادى خديعة أو خيانة. كان يعرف أنه بعد المرأة التي ترقد في الغرفة سيأتي عدد غير محدد من الناس وسيستمر في إجراء العمليات. نظر إلى مارادونا، بظهره المقوس شيئًا ما نحو الأمام، فوق المائدة، فتأكد للفور من أنه حتى الرغبة في تصفية الآخر كانت أمرًا سخيفًا سخافةَ الاستمرار في التفكير المزعج في المرأة. كانت رؤيتُها في العتمة بذلك القلق لا يمكن أن تفهم سوى على أنها اضطراب خفيف، كما يحدث حين ينزل الضغط. الشيء المهم والوحيد هو ألا ينظر إليهم في وجوههم، فكّر مرتاحًا.

ـ سأهذب لأُحضِّر القهوة ـ قال وهو يتجه بحزم نحو المطبخ.

ـ سآخذ منك فنجانًا، لنرى إن كان يزيل عني هذا النوم ـ قال مارادونا منهيًا كلامه، وهو يتمطّى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تائهًا لنصف ساعة

رأى أنه من الضروري أن يعيد التجربة مرة أخرى. كانت عملياتُ إظهار الصور الأخيرة جيدة، مع تباين واضح بين الأبيض والأسود، لكنه وجد أنه ينقصها تماسك في درجات اللون الرمادي. وكان يعرف أنه بعد بضع ثوان من تعريضها للنور، فإن درجات لون الصورة ستزداد عمقًا وقوةً. أخرج من سطل الماء آخر عيّنة، وقرّبها من الضوء ثم تأمل لحظة ابتسامة الشابة. منذ مدة طويلة لم يشعر بمثل هذا السحر الذي يدفعه ليُظهر تقاسيم أي وجه مطبوعٍ على الشريط، حين يداهمه الشك بأنه يمكن أن يكشفه مسبقًا وبكل دقة. تصوّرَ أن من سدّ عدسة آلة التصوير كان يعلمُ مسبقًا أن تلك اللحظة ستكون هي الأخيرة التي ستغير فيها الشابة تعبيرات سعادتها الحقيقية.

قرر أن يجري التجربة الموالية على ورق لامع، من حجم 1/8. وما إن ثبّت الشريط حتى سمع طرقًا على الباب. رأى في الساعة الحائطية أنه لم يعد هناك وقت طويل على حلول الساعة السادسة. توالت الطرقات لكنه أبى أن يجيب في الحين. غمس الورق في الحمض، حرّكه بعناية بواسطة الملقط ثم انتظر. عندما برزت أولى البقع مرّر أطراف أصابعه على السطح، كما لو أنه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يريد أن يستعجل مجرى العملية. أخرج جزءًا من الورق فلاحظ أن الظلال على وجه الشابة تُظهر تباينًا قويًا جدًا. ألهته الطَّرَقات على الباب. يجبُ أن يعيد العملية. ترك الصورة تحت الماء المنهمر وتوجه نحو الباب.

- خورخي لويس؟ - سأل.

- نعم.

- ما بك؟

- عمُّك ينادي عليك.

- انظر - قال ماوْريثْيو بعد لحظة صمت -، من فضلك، أخبره أنني سأذهب بعد بضع دقائق.

- نعم، يا سيدي - أجابه الصوتُ الآخر وهو يبتعد عن الباب.

عاد إلى الصورة وكان على وشك أن يجيب بحركة على الابتسامة الجميلة. "أريدها أن تبدو رائعة... وأن تَظهرَ الأمواجُ"، همهم بينما كان يفحص سطح الصورة بمكبرة ضخمة، مركزًا على الجوانب، وعلى ضوء جديد لم ينتبه إليه في التجارب السابقة. فجأة، عنّت له رغبة في الكشف عن سر ذلك الوجه، كما لو أنه يتمنى أن يفهمه، ويقرر، بذلك، انطلاقًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من جموده، أن يقدم له مساعدة. ابتسمَ للفكرة. ثبّت الورق على الجدار، وظن أنه رأى أن شفتي الشابة تتحركان كما لو أنهما تهمسان له بشيء ما. عليه أن ينتظر انقضاء نصف الساعة التالية، وهو الوقت الذي اتفق عليه ضمنياً ليقوم بزيارة عمه. نزع الصورة من الجدار وألقى بها في السطل.

*

قبل أن يذهب إلى الغرفة، قرر أن يمر على المكتب، الذي يشغل غرفة من الغرفتين المطلتين على الشارع. كان الاستوديو يوجد في الطابق الثاني من عمارة وسط المدينة. كان مساعده، خورخي لويس، يراجع بعض الفواتير عند طاولة المكتب، قرب الباب الرئيسي.

- ماذا قال عمي؟ - سأله.

- لا شيء. قال إنه بانتظارك.

- حسناً.

أطل من النافذة. كان المساء لا يزال صحواً.

- هل جاء أحدٌ ما؟

- نعم. أخذتُ بعض الصور الخاصة ببطاقات الهوية - أجابه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خورخي لويس دون حماس كبير.

عرض عليه ماوْريثْيو سيجارة وبقيا يدخنان للحظة في صمت. ظل خورخي لويس مركزًا على الوثائق. قطع ماوْريثْيو الصالة واقترب من المرآة الصغيرة حيث يقوم الناس بوضع آخر اللمسات على وجوههم قبل التقاط الصورة في الاستوديو. جال بنظرة سريعة عبر الغرفة وتأكد، مرة أخرى، أنه لم يبق أمامه الكثير كي يفي بوعده بأن يحافظ ويطور هذه التجارة المحتضرة تقريبًا. وحدها صدفةٌ جميلةٌ، مثل ابتسامة الشابة، قد تحتفظ بالغرفة السوداء مكانًا وحيدًا مواتيًا للرؤى، حيث من السهل طرد الملل أو ابتكار لعبة ما لتزجية الوقت.

ـ يبدو أننا قد بدأنا بداية سيئة هذا الشهر أيضًا ـ قال معلقًا، بعد أن راجع بسرعة الوثائق القليلة فوق طاولة المكتب.

ـ ربما تتحسن الأمور في النهاية ـ قال خورخي لويس كعادته.

ـ نعم، هذا ممكن.

*

كانت الغرفة عند نهاية رواق صغير. فتح الباب الذي اندفع بسهولة، ثم دخل وأغلقه متحاشيًا إحداث ضجيج. في العتمة، ميز وجه العجوز، المستلقي على سرير في عمق الغرفة. استند إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الباب، وظل ينتظر أن يدعوه ليتقدم، كالعادة. كان يبدو له من المدهش أنه بعد كل هذا الوقت ما زالا يلتزمان بهذا النوع من الطقس اليومي، كما لو أنهما يريدان، مخطئيْن، أن يتجنبا تحوّله، من فرط التكرار، إلى فعل مشروط لا قيمة له. ومرة أخرى، تعرّف على جوّ الغرفة الثقيل، الذي يشبه رائحة لفافة سيجارة، وأدوية وماء كولونيا ناعم.

ـ أشعلْ الضوء ـ قال عمه، وهو يتحرك في السرير.

قطع ماوْريثْيو الغرفة واقترب من منضدة السرير. مرّر العجوز يده على شعره القليل وظل يحتفظ بها لحظة فوق عينيه، يحميهما من البريق. وكالعادة، رفع ماوْريثْيو الكرسي، الذي ظل عند مستوى الرأس، والملابس الموضوعة فوق ظهر الكرسي. وضع كل شيء بعناية عند قدم السرير: السروال القماشي، السُّترة، اللفاعة الحريرية، والقميص النظيف والمكوي بعناية. كان عمه يأمر أن يتركوا الملابس جاهزة، في المتناول، كما لو أنه، والملابس قريبة منه، يحتفظ بيقين النهوض في أي لحظة ليخرج من جديد إلى الحياة اليومية.

ـ كيف حالك اليوم؟ ـ سأله ماوْريثْيو بعد أن جلس.

ـ جيد ـ أجابه العجوز بشيء من الصعوبة، بينما كان يحاول

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن يعدل جلسته بين وسادتين ـ وأنت، كيف حالك؟

ـ أشتغل ـ أجابه ماوْريثْيو.

ران الصمتُ لحظة.

ـ خُذني إلى الحمام ـ طلب منه العجوز.

من دون أن يستطيع تفادي ذلك، حدّق ماوْريثْيو بنظره في اليد النحيفة البارزة من بين الملاءات. انتابه انطباع عابر بأنها تتحرك لوحدها، مهملة ومنعزلة عن الذراع المناسبة المحتملة المغطاة بكُمّ قميص المنامة. نظر إلى الأصابع الطويلة، والأظافر الوردية، المرتبة والنظيفة، مع ذلك التقليم الدقيق الذي تقوم به المرأة التي تأتي كل يومين لتحمّم العجوز. تحركت اليد بهزّتين خفيفتين فذكرته بالشابة المبتسمة، حبيسة الورق الصقيل؛ سجينة جميلة تبدو بدورها كأنها على وشك أن تدرك حياتها الخاصة.

ـ ما بك؟ سأله عمه.

ـ لا شيء ـ أجابه ماوْريثْيو، مفزوعًا.

وبالدوار نفسه الذي ينتابه كل مرة، تمنى لو أنه، وهو يرفع الأغطية شيئًا فشيئًا، يختفي ذلك الجسد المختبئ هناك تحت الملاءات بروائحه التي بالكاد كان يدركها ويتلاشى ببطء، ثم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تتبخر أطرافُه بعد أن يحرك الغطاء العلوي، كما يحدث تحت مفعول حامض عجيب.

ـ ما بك يا ماوْريثْيو؟

ـ كنتُ أفكر أنه ينبغي أن أقتني لك غطاء سرير جديدًا.

ـ ما فائدة ذلك ـ قال العم ـ من الأحسن أن تأخذني إلى الحمام.

وجد الجسد في نفس وضعية الصباح تقريبًا، وضعية كل المساءات السابقة، مستقرًا في الفضاء المُقعّر الذي شكلته الأطراف في الفراش. أخذ بلطف الذراع الصغيرة التي تمتد نحو يده. "كم يبدو من السهل كسرُها"، فكر وهو يمسك بعمه من ظهره، عمه الذي صار يحتاج لوقت طويل كي يبدأ وينهي أي حركة من حركاته. ساعده ماوْريثْيو كي يقف عند حافة السرير، ثم ساعده لينتعل الخفّين، وأخذه بدفعة خفيفة إلى الحمام ثم ظل ينتظر كي يجلس. ترك الباب مواربًا وخرج.

*

اقترب من النافذة. كانت الغرفة، في الجهة الخلفية من البناية، تطل على فناء مشترك مع جيران آخرين، حيث كان لحظتها طفل يمتطي دراجة ثلاثية العجلات، ولا يرفع عينيه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عن الأرضية. قفز قلبُه، لأنه لم يفهم من أين يمكن أن يكون قد خرج في تلك الساعة، فخطرت على باله فكرة أنه كان يلاحظ أطيافاً من عالم موازٍ، فضاء وزمن طفولته من دون أي رفقة. دفعه اليقينُ المفاجئ لرؤية نفسه لينادي على ماغي، يدعوها ويُريها الصورة التي تسبح في السطل. يريد أن يلمح لها بأنه، بسبب صدفة سعيدة، وجد للتو ابتسامة هي توأمة لابتسامتها، يملكُ جَمالُها القدرة على شلّ الحواس.

حاول أن يتخيل وجه من حمل واستعمل عدسة آلة التصوير. كان يظن أنه رجل. واعتقد أنه رأى، أيضًا، أن الشابة كانت تبدي حركة تشي بأنها مغرمة، أو بالأحرى مغتبطة بما يمكن أن يحدث لها من أمور في ذلك الحاضر المُجمّد. تذكر أنه من بين ثلاثين صورة التي تشكّل الشريط تظهر المرأة فقط في صورتيْن، أُخذتا في لحظتيْن وفضاءيْن مختلفيْن عن المشاهد الأخرى. كان يقدر أن عمر الظل في الصورة لا يتجاوز خمسة وعشرين عامًا، ويجد في تعبيره صفاءً ونضارةً رائعين. ربما ترتابُ ماغي، المستعدة دائمًا لأن تمارس عليه خبثها، من شطحات خياله. لكنه اكتشف، مع ذلك، أنه قد يكون شيئًا جميلًا أن يكون هو المالك الوحيد للصفة العجيبة التي تكمن في تكرار تحويل حركة العينين وضوئهما إلى ما لا نهاية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ ماوْريثْيو ـ نادى عليه العم.

وجده ممسكًا بحافة المغسلة، ينتظره بذراعيْه المرتجفتيْن.

ـ يومًا عن يوم أجد أنه ليس من اللائق أن أقضي اليوم في السرير... يا للحزن.

لم يعلق ماوْريثْيو بشيء. كان يعلم أن الأمر مسألة انتظار، وانتباه في صمت. منذ الأيام الأولى، عندما اضطر عمه ليعتزل العالم، كانت مشاركته في هذا النوع من الحوارات تقتصر على الحضور. يتخذ وضعية شبه مختفية، كما لو أن عليه فقط أن يلمح بنواياه. لكنه كان يبدي تغاضيه، سواء أطلق عمّه العنان أم لا لتلك الأطياف التي تجوب رأسه، رغم أنه من مساء لآخر كان يجد أن تحمل الإزعاج واستعادة التركيز صارا أمرًا أكثر فأكثر ضجرًا. تفحّص وجه العجوز. كان يغمض عينيه ويفتحهما بتثاقل، كما لو أنه على وشك أن ينام أو أن يفقد الوعي.

ـ متى تأتي الممرضة؟ ـ سأل العمّ أخيرًا.

ـ جاءت بالأمس ـ أجابه ماوْريثْيو، مُلطِّفًا نبرة صوته.

ـ صحيح، طبعًا... ـ قال عمه مع ما يشبه تكشيرة ـ إن فقدان الذاكرة يمكن أن يكون من مزايا الشيخوخة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وافق ماوْريثْيو بحركة من رأسه دون أن يبرح مكانه. لاحظ أن ذلك المساء يمكن أن يكون من تلك المساءات التي تداهم فيها الهواجس عمه. ربما تأتيه من صمت الغرفة، كما يحدث له أيضًا، فكّر.

ـ أعطني سيجارة.

ـ إنك تعلم جيد أن التدخين لا يوافقك ـ قال من دون اقتناع.

ـ لماذا تكرر دائمًا نفس العبارة ـ قال العجوز متهكمًا، وهو يتلقى السيجارة المشتعلة.

ـ هل تريد مواصلة اللعب؟ سأله ماوْريثْيو، وهو ينظر إلى الطاولة حيث رقعة الشطرنج.

ـ لا. لا أريد الآن.

دخّنا معًا بنفس الهدوء تقريبًا. لم يكن رماد سيجارة عمه يسقط دائمًا في المطفأة. أطفآ السيجارتين معًا في الوقت ذاته.

ـ هل تريد أن تأكل شيئًا؟

ـ لاحقًا.

ران صمتٌ آخر. عدّل ماوْريثْيو الملاءة على رجلي عمه. رغم أن العمّ في الأيام الأخيرة عانى من نوبات اكتئاب متكررة، مع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حالة صحو عنيفة تقريبًا، ظن ماوْريثْيو أنه كان هادئًا في ذلك المساء، وربما مستعدًا ليستمع لأسرار اكتشافه الجديد في الغرفة السوداء.

- يجب أن تُحضر لي صابون الحمام - قال العم فجأة.

- نعم. سوف آمر الآن خورخي لويس بإحضاره.

- لماذا لم تعُد ماغي؟

- كانت هنا قبل بضعة أيام - قال ماوْريثْيو، وهو ينهض.

كان عمه يحب الحديث مع ماغي وهي تعامله بلطف، تتسلى بكل ما يرويه لها من حكايات. كان ماوْريثْيو يعرف أن عمه يتوقع زواجهما قريبًا، لكنه لا يجدي نفعًا أن يخبره بأن ذلك أمر مستحيل.

- إنها تبلغك سلامها وستصعد في المرة المقبلة لتزورك - قال في النهاية وهو ينظر إلى رقعة الشطرنج.

- لديها حس دعابة كبير - قال العجوز.

- نعم - همهم ماوْريثْيو. نظر من جديد إلى وضعية القطع وحاول أن يتذكر اللعبة التي كان قد حضّرها.

- وضعيتُك أحسن من وضعيتي - قال العم، وهو ينظر إليه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ لا أدري. إنني لستُ واثقًا جدًا من ذلك.

كان يعرف، في الحقيقة، أنه بحركتين أو ثلاث حركات، يمكنه أن يهاجم بفرسه ملك خصمه، ويحاصره دون شفقة، لكنه قد يقتفي طريقًا أخرى، ويبحث عن مفترق آخر يمطّط النهاية. ظلا صامتين لحظة أخرى. كان العجوز يداعب جبينه بيدٍ بينما كان يعبثُ بخيوط الملاءة بيد أخرى. جلس ماوْريثْيو ثانية.

ـ كيف هي أمور تجارتك؟ سأله العم.

ـ جيدة. جيدة جدًا.

يومًا عن يوم، كان يجد صعوبة كبيرة في تأكيد هذه الكذبة البيضاء. كان الضوءُ فوق منضدة السرير بالكاد يعاكس عتمة الغرفة. نظر ماوْريثْيو إلى الساعة.

ـ كم الساعة؟ أراد العم أن يعرف.

ـ السادسة والربع.

وافق العجوز بحركة من رأسه، كما لو أنه يؤكد شكًا عابرًا. نهض ماوْريثْيو وأشعل المصباح العمودي قرب التلفاز.

ـ بالأمس رأيتُ حلمًا ـ كشف عمُّه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اقترب ماوْريثْيو من النافذة وانتظر من جديد. كان الفناء الآن مقفراً ومظلماً. لم يكن هناك أثر لحضور الطفل. أراد أن يعود فوراً إلى الغرفة ثم يستأنف اللعب، ويصقل حدّ الكمال تلك الصورة المبتسمة. لكن دائمًا، وبشكل ضمني، سيظل حضوره هناك شيئًا أساسيًا. فانتظر بداية الحكاية.

ـ أظن أنني كنتُ مسافراً على متن قطار. أنت تعرف كيف هي الأحلام، حيث لا يكون المرء واثقًا مما يحدث. لكني كنتُ أعرف على الأقل أنني كنت أسافر عبر منطقة من الأراضي الساخنة...

توقف ليأخذ نَفَسًا وبدا كأنه يفكر فيما قاله للتو. كان ماوْريثْيو يستمع مستندًا إلى حافة النافذة، ومن هناك كان بإمكانه أن يميز أشكال الجبال.

ـ أدركتُ ذلك من الروائح... تابع ـ بقيت وحدي لحظة، عاريًا، مستلقيًا فوق ما يشبه غرفة في سفينة... أنتظر أن يظهر أحد ما...

توقف مرة أخرى. كانت احتياطات نَفَسه تقل أكثر فأكثر. أراد ماوْريثْيو أن يشعل سيجارة أخرى كما لو أن مجهودات عمه تدعوه في الوقت ذاته ليشعر بدخان في صدره. منذ مدة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يسمع اعترافاً يومياً يبتدئ بحلم وأثار المشهدُ الأول اهتمامَه. في الآونة الأخيرة، صارت تروقه طريقة العم في اختيار التفاصيل؛ وذلك المنطق الخفي الذي أصبحت تكتسيه ذكرياته أو إبداعاته أو أوهامه، وهو ما يتناقض مع ذلك الوجه الذي يبدو وكأنه على وشك أن يضل الطريق إلى الأبد. ظن أنه سوف يسمع في النهاية اعترافاً أو درساً أخلاقياً جديداً حول أزمنة الماضي الضائعة. تنحنح عمّه وتابع كلامه:

- كما أظن أنني لم أكن عجوزًا إلى حد كبير... كان ثمة ضوء في مكان ما، ربما كان يأتي من الخارج، لكني كنتُ في العتمة في الحقيقة... لا أدري... أظن أنني ربما كنتُ في واحدة من تلك المقصورات في القطارات الأوروبية، وربما مزجتُ ذلك مع ذكرى من ذكرياتي عندما كُنا نعيش في إيطاليا...

اندهش ماوْريثْيو لصيغة الجمع المفاجئة التي استعملها عمُّه في الأخير. كان يعرف بعض الأشياء عن تلك الرحلة، رأى صورًا، لكن عمه لم يحدثه قط عن تلك السنوات. كان يقتصر على ذكر بعض الإشارات المتفرقة أثناء هذا الحديث أو ذاك.

- وفجأة رأيتُ أن هناك رجلًا إلى جانبي، يجلس عند مستوى ركبتيّ ويمدّ لي يده... بدأت أتصبب عرقًا... لا أذكر إن كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

داعب رأسي، لكني شعرتُ أنه كان يعاملني بحنان، كمن يعامل ابنًا التقاه بعد وقت طويل...

وبعد لحظةٍ صمتٍ أخرى، قال رافعًا صوته:

- غريب جدًا. ألا ترى ذلك؟

لم يجب ماوْريثْيو وجلس من جديد قبالة جسد عمه. شكّ إن كانت الحكاية الكاملة التي كان يبنيها الآن حلمًا، في الحقيقة، أم أنها، على العكس من ذلك، وليدة تفكير مدروس نشأ للتو.

- بقينا كذلك لحظة - تابع قوله بشيء من الحماس، كما لو أنه لا يريد أن يقطع سلسلة أفكاره - ولم ننبس ببنت شفة... ودون أن أعرف كيف، اكتشفتُ أن الزائر كان يشبه شخصًا من معارفي القدامى... أو ربما قريبًا من أقربائي... كان حلمًا قصيرًا، وتحدثنا في الأخير عن بعض الأمور الخاصة بالموت... الموت القريب، الذي كان على بعد أيام من أن يضرب ويجرف كل شيء... هل يزعجك هذا؟ - سأل وهو يقطع كلامه.

- كلا، لا يزعجني في شيء - أجابه ماوريثْيو الذي انساق وراء نبرة الجُمل المتثاقلة.

رانتْ لحظةُ صمت أخرى. نظر عمه نحو النافذة لبُرهة. تخيل ماوْريثْيو أنه كان ينبش في ذاكرته، في تلك المنطقة التي تبدو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مقفرة أحيانًا. أدهشه أن يجده هادئًا للغاية، يختار كلماته بعناية أكبر من مرات أخرى، كما لو أنه يقرأ الحكاية بعد عدة تصحيحات. وفوق ذلك، يبدو متسليًا بالموضوع.

ـ ما يحدث هو أنه في مثل هذه السن ـ ألح العم وهو يضغط على يديه ـ ما من أحد لا يفكر في الأمر نفسه كل الوقت... وطبعًا، في نفس الأحلام أيضًا.

وبالفعل، كانت الموضوعات الأخيرة تدور حول موت يطل بشكل مستمر. لكن ماوْريثْيو انتبه إلى أن التنويع كان ذا ترتيب مختلف، يجهله، ترتيب رخيم. فكّر من جديد في الطابع التخييلي للكلمات التي كان ينطق بها العجوز، والتي يجلبها إيحاءٌ غريب، ثم أدهشته إمكانية أن ينجز، بين الفينة والأخرى، لأول مرة أمام عينيه، ازدواجية شخص لم يكن يعرفه. شخص قادرة على خلق عالم ممكن، كذلك العالم الذي ظن أنه رأى فيه، قبل هنيهة، الطفل الذي يمتطي دراجة ثلاثية العجلات.

ـ وحينئذ قال لي ـ تابع العجوز بنفس التثاقل ـ إنني أستغرق وقتًا طويلًا لأموت... لأنفصل عن الأيام، وعن البيت... وقبل أن أستيقظ أظن أنني توسلتُ إليه أن يعطيني مهلة... لا أذكر أكثر من هذا... ـ قال في النهاية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تنهّد ماوْريثْيو. كان يودّ ألا يقترب سريعًا جدًا من النهاية، وأن يظل عند خاتمة الحكاية، المُبتكرَة أو غير المبتكرَة.

ـ ما رأيك أنت؟ سأله عمه.

لم يعرف ماوْريثْيو كيف يجيب على السؤال الذي فاجأه على حين غرة.

ـ لا أعرف ـ أجاب.

ـ ما الذي لا تعرفه؟ ألحّ العمُّ.

فكر في شيء ما يقوله حتى لا يعاكسه.

ـ إنني لا أفكر في الموت أبدًا ـ أجاب ماوْريثْيو، وهو يمدّ في الوقت ذاته ذراعيه مُتمتّعًا، كما لو أن حركته تصبو إلى التخفيف من خطورة جوابه.

وافق العجوز في صمت بحركة من رأسه.

ـ هل وجدتَ تلك الصورة التي طلبتُ منك؟ سأله بعد حين.

ـ نعم، وجدتها ـ قال ماوْريثْيو كاذبًا.

ـ هل قمت بإظهار الصورة مرة؟

ـ حسنًا، ما يحدث هو أنني أبحث عن نيجاتيف أحسن حالًا ـ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال ماوْريثْيو، وهو يعرف أن الصورة لم يكن لها أي وجود.

ـ لا داعي للعجلة ـ قال العجوز.

ـ سأجلبها لك نهاية هذا الأسبوع ـ تابع ماوْريثْيو معتذرًا.

ـ لقد قلتُ لك أن الأمر غير مستعجل ـ قال العم في النهاية ثم أغمض عينيه.

خمّن ماوْريثْيو أنه ربما يكون قد اكتشف المهزلة. ربما تصلح الصورة غير الموجودة لهما معًا طلسمًا يحولُ دون حدوث أي نهاية من دون عودة. تأمل الوجه ذا التجاعيد القليلة. لم يكن يشعر بالشفقة. كان كلاهما يعلم أنه لا أحد منهما قد يسمح بذلك. سمعه يقول ذات مرة في حديث مع ماغي، إن الشيخوخة ليست إلا محنة مؤسفة بالنسبة لإرادة الجميع، غير الكافية للتحكم في تدهور الجسد. تساءل عن القرابة الحقيقية بين الاثنين، بغض النظر عما يسمى قرابة الدم العائلي. تصوّر أن اللعب داخل الغرفة السوداء هو الإرث الذي ينبغي له أن يحتفظ به، وهو العروة التي تجمعهما، وهو ما يعوضه بتلك الزيارة اليومية. نهض عندما فتح العجوز عينيه. أبى أن يستسلم للشرود، ليس الآن وقد كان قاب قوسين أو أدنى من الكشف عن الحقيقة الأخرى التي تنتظره.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ هل تريد أن أغلق الستار؟ سأله.

ـ بعد حين.

ـ هل آمرهم أن يحضروا لك أكلًا؟

ـ طيب. حين تخرج اطلب من خورخي أن يُحضّر لي فنجان شوكولاته.

ـ لا شيء غير هذا؟ سأله ماوْريثْيو بعد صمت آخر.

ـ لا، بإمكانك أن تنصرف.

ودعه ماوْريثْيو، لكنه قبل أن يخرج نادى عليه العجوز:

ـ أحضر لي كوب ماء من فضلك.

ـ هل أنت بحاجة لأي شيء آخر؟ سأله ماوْريثْيو مجددًا بينما كان يضع الكوب فوق منضدة السرير.

ـ أشعلْ التلفاز ـ قال العم، ثم ما لبث أن ندم على ذلك ـ : لا، من الأفضل أن تشغّل شريط تسجيل.

ـ ماذا تريد أن تسمع؟

ـ أظن أن هناك شريطًا في آلة التسجيل.

ـ نعم ـ قال ماوْريثْيو وهو يقلب الشريط.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ أي شريط تريد؟

ـ أغاني راوول غاليرو.

ـ حسنًا، يا عم. سآمر خورخي أن يُحْضر لك ما طلبتَه.

ـ اسمع ـ بدأ يقول العجوز ثم مد له يده ـ ما رأيك في الحلم؟

لم يفلح ماوْريثْيو في منعه من أن يشد معصمه. كان جلد كفه دافئًا وناعمًا. حاول أن يخفي انزعاجه، رغم أنه يعلم في الوقت ذاته أن عمه يتمسك به.

ـ لقد قلتُ لك رأيي...

ـ هل تظن أنه لم يبق أمامي شيء كثير؟ قاطعه العجوز بصوت حازم.

ـ لا تقل ذلك ـ قال ماوْريثْيو دون أن يستطيع التفكير في شيء آخر وهو ينفلت من قبضة كفه، بعد أن شعر بضغط خفيف.

ـ أحضر لي الصورة...

ـ نعم... نهاية الأسبوع المقبل.

*

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خرج، نادى على خورخي، وأمره أن يُحضِّر فنجان الشوكولاته للعم، ثم طلب منه فنجان قهوة. انتظره أن يعود عن الباب.

ـ أحضرتُ لك بسكويت ـ قال خورخي لويس مبتسمًا.

أخذ ماوْريثْيو الصينية وعاد إلى الاستوديو. ضغط على زر "play" في آلة التسجيل ثم انساق من جديد وراء الإيقاع وعذوبة الصوت حتى توقف الشريط. لا يمكن لأي امرأة أخرى أن تغني بهذه الطريقة، ردّد في ذهنه. ارتشف بضع جرعات من القهوة ثم أسند رأسه إلى ظهر الكرسي. فكّر في عمه، واحد من أول وأفضل المصورين الصحفيين في بوغوطا، ثم تخيله منغمسًا بدوره تحت ضوء أحمر، كما في أعماق عالم آخر. كان عينًا عامة، وسرية في الوقت ذاته، تقودها، كما تفعل الآن معه أيضًا، بحماس صامت، الرغبة العذبة في تحديد ومباغتة الفرح المختفي وراء ورق صقيل.

رفع التجربة الأخيرة بعكس الضوء ثم مرّر سبّابته فوق الشفتين الرقيقتين. أخرج النسخ التي كانت في الماء وثبتها على الجدار. إن الصورة، في الواقع، لا يمكن أن تكون أكثر بساطة، لأنها التُقطت من دون تكلّف خفي.

كانت الشابة تبتسم أمام العدسة وتكاد تغمض عينيها. شعره

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أسود، طويل وكثيف، مشطته على الجانب، وشدته عند الأذن بدبّوس لا يُرى. لا يمكن تمييز شكل عنقها المختفي تحت الظل. تجلس أمام طاولة صغيرة، تتكأ على ذراع ترسم زاوية قائمة بمرفقها، وتحمل بين أنامله الطويلة والرقيقة، سيجارة أشعلتها للتو. الذراع الأخرى تتوه تحت الطاولة. ترتدي قميصًا وحول معصمها يمكن رؤية ساعة مستطيلة. صورة أُخذت من مستوى متوسط، من شرفة يبدو أنها تقع في الطابق الثاني بفندق قبالة البحر. على يسارها تظهر قطعة من الشاطئ، وموجة صغيرة على وشك أن تنكسر. فوق الطاولة، المغطاة بمنديل ذي مربعات، هناك فنجانان، إبريق قهوة، زجاجة بيرة تبدو فارغة، علبة مارلبورو وعلبة من قشطة الحليب. تبدو الشابة وكأنها تريد أن تخفي نجلها بعض الشيء؛ ربما يكون المُصوّر المختفي، كما تخيّل ماوْريثْيو، قد أشار لها للتو أن تبتسم دون تكلف.

أدرك، حينئذ، أن سر فك رموز تلك السعادة البسيطة التي ترافق الصورة إلى الأبد لا يكمن في إعادة التجارب. هو من قد يبقى سجين هذا العرض من الابتسامات الصامتة، محاصَرًا، مثل نائمٍ يسير ليلًا، وسط شِباك حلم مُلغز يناديه من ورق، كأنه الصوتُ الذي كان ينادي وينادي عمّه من العتمة في الليالي الأخيرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خارطة الواقع

مستلقيةً على جنبها الأيسر في الشقة، كانت الكلبةُ تتنفس وتحرك ذيلها دون قوة كبيرة، على نفس إيقاع يدِ دْيغو التي تداعب جبينها. كانت تحتفظ بعينيها مغمضتين، لكنها، من حين لآخر، وبتنفس صعب يجبرها على ابتلاع ريقها، ترفعُ شيئاً ما رأسها، كما لو أنها تريد أن تتأكد من أنه لا يزال هناك، فوق الكرسي، متمدداً نحو الأمام، مع زجاجة بيرة، إلى جانبه آلة تصوير وبعض الصور فوق حضنه. كانا هناك في شرفة الحديقة الخلفية منذ أكثر من ساعة، ينتظران أن ينتهي ضوء المساء. فكّر دْيغو أن كل واحد منهما، على طريقته، كان يحاول أن يأول ويهضم في صمت ذلك الصدى الذي تركته في الهواء الجلبةُ والهزات التي ملأت ساعات تلك الجمعة، التي تدشن آخر نهاية أسبوع يقضيانه معاً.

وبما أنهما كانا القاطنين الوحيدين في هذه المنطقة الحميمية لأكثر من أربع سنوات، مع عدد قليل من الضيوف المعاودين، فإن ذلك الحشد من الناس الغرباء الذين غزوا البيت واستولوا عليه منذ الصباحِ الباكر قد تركوهما في حالة اضطراب. قلقٌ زادَ من حدّته، أيضاً، أنه كان عليهما أن يتركا الباب الرئيسي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مفتوحًا على الدوام، دون أن يعرفا أين يتخذان لنفسهما موضعًا. ومع مرور اليوم، شعر دْيغو أنه كان تحت تأثير معقد لمُخدر يُربكه ثم توطّد مفعوله مع وضع مصابيح أفقية ذات لون أبيض في سقفي الطابقين الأول والثاني، بالإضافة إلى السلالم والحمامات. ومنها كان ينبعث استشعاعٌ حادّ يمحو الأحجام والألوان الطبيعية للأشياء، ويمنح كل زاوية من الزوايا زيفًا محايدًا، لا يترك أثرًا لتلك المميزات المألوفة التي منحوها إياها عند مرورهما.

نظر مرة أخرى إلى الصور التي أخذها مباشرة بعد أن غادر آخر كهربائي، وقرأ من جديد ما كتبه للتو في إحدى البطاقات، زخمٌ من الأفكار المتناثرة كأنها سجلٌّ يوثق المشهد الذي صوّر، شيئًا فشيئًا، اندفاع العمال وهم يقلبون رأسًا على عقب شكل البيت من الداخل. والكلبةُ تتعقبه طوال الوقت، تحرك دْيغو من مكان لآخر وبداخله إحساس متزايد بأنه ضيف غير نافع، لا جدوى من بقائه هناك لأنه يعيق المهمة الدقيقة التي ينجزها التقنيون، الذين جاءوا مسلحين بالمطارق والمثاقب، فانبروا يشيدون جدارات فاصلة بين غرف النوم، ويهيئون أمتارًا من الميازيب الخاصة بأسلاك خطوط الهاتف الجديدة وروابط الإنترنت. رآهم ينتقلون من غرفة إلى أخرى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كأنهم عصابة تهدم، دون كلل أو مجهود ظاهر، غابة من الأسرار التي لا تتكرر ولا يمكنه أن يقوم إزاءها سوى أن ينتظر في صمت. مكتبُه، مثلًا، تحول في أقل من ساعتين إلى قاعة اجتماعات في المستقبل، مع دعامات حديدية مثبتة في الجدران لوضع أي شاشة من نوع بلازْما، وما يشبه شرشفًا شفافًا من الأكريليك يشغل كل مساحة الشقة. عندما اقترب من النافذة، حتى شكل الجبال التي كان يراها كل صباح من مكتب عمله لم تعد كما كانت.

حسب ما اتفقوا عليه، سوف يصل المالكون الجدد مع آخر التغييرات باكرًا يوم الثلاثاء. يتعلق الأمر بمقاولة تستورد مواد النظافة. وكما توقع، قد يلغون كل بقايا النظام السابق ما إن يأتوا بالشاحنة المحملة بما بقي من مكاتب، وكراسٍ، وحواسيب، وخزانات المحفوظات، وعلبٍ، وأفران وآلات لتحضير القهوة. ورغم أن الأمر لم يكن ذا جدوى في تلك اللحظة، فقد شعر بارتياح خفيف لأنه كان يتطلع إلى عطلة نهاية أسبوع طويلة.

خطر على باله، حينئذ، أنه انطلاقًا من تلك اللائحة العشوائية من الجمل قد يبني لأول مرة قصته البصرية الأكثر قربًا من ذاته. لقد تجاوز، أخيرًا، حدودًا لا يمكن تصورها، من دون تراجع إلى الوراء: تسليم المنزل إلى آخرين، إلى الأبد. ومع دليل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصور، كان يتخيل مشهدًا طويلًا من اللقطات الذاتية، بالأبيض والأسود، مع خطوط مستلهمة من المنظورات المفصلة لشخص مثل شاون تان(09) أو ستيفان بولان(08) . وربما، هناك بالضبط، قد يجد أيضًا الطريق للخروج من المستنقع الذي كان يركض فيه كتابا الصور اللذان ظل يشتغل عليهما لأكثر من ثلاثين سنة.

*

عبر طائرٌ السماء بسرعة فرفعت الكلبة رأسها مرة أخرى. هرّت هريرًا خفيفًا ثم تنهدت. خلال هذا الأسبوع الأخير، رافقت دْيغو إلى كل ركن، كما لو أنها لا تريد أن تتركه وحده لحظة واحدة، رغم ما يكلفها صعود السلالم ونزولها من جهد كبير. رأى دْيغو كيف كانت ترقبه وهو يرزم آخر أغراضه الشخصية في بعض الحقائب والعلب؛ وكيف كانت ليلًا، حين يستلقي هو في السرير دون أن يشعل الضوء، تلتقط بانتباه وسط الظلمة أدق رعشات قلبه. فهل تكون قد تكهنت بما كان يحتفظ به من نوايا خاصة بنهاية الأسبوع؟ لطالما قال لها أكثر من مرة، وبصوت مرتفع، أن الأستوديو الذي سيسكنه ابتداءً من الثلاثاء المقبل لا يتوفر على ما يكفي من الفضاء كي يستمر في العناية بها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ ماذا عساني أصنع بك، يا عزيزتي سومبرا؟ ـ قال، وهو يربت بضع الربتات على صدرها.

تأثّر لسعيها الهادئ والصامت لتحميه من الهجوم الأخير، ومن الجلبة التي لا اسم لها في هذا العالم الجديد، ومن القلق المتزايد الآن بفعل بريق لَبَني يضيء البيت. منذ أن كانت جرواً، برهنت سومبرا على أنها حيوان يتمتع بحَذَر خاص. ليس بفضل أوصاف تميز سلالتها، بل بفضل حسّ استباقي لا غبار عليه؛ وهو قلق يرافقها كلما كان حدث مؤسف على وشك الوقوع. تعرف، مثلاً كيف تنبح في وجهه كأنها تنادي عليه، حين تبدأ الكآبة بمحاصرته.

في أحد كتُبه المنشورة الأولى، المستوحى من تجربة قصيرة في جزر الأنتيل وخليج المكسيك، جعل دْييغو من سومبرا الأليفة ما يشبه دِرواسا أسود يتحدر من سلالة مجهولة، لها قدرة غريزية على التنبؤ، وبسبق كبير، بالظواهر المناخية الخاصة بطبيعة المناطق المدارية. بفضل حاسة شم تتخذها جهازاً للتكهن، كانت تعلن بواسطة نباحها عن اقتراب العواصف، والزوابع البحرية، خاصة الأعاصير؛ تلك القوى الجامحة التي تزرع الرعب في نفوس سكان السواحل. ذات ليلة، بقيادة ورغبة طفلة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في العاشرة من عمرها، ساعدت في إنقاذ جماعة بكاملها كان يتهددها صعود مفاجيء وقوي لمياه تجرف كل شيء وينذر صخبُها بنهاية العالم. من زوايا ومستويات مختلفة، وبمزيج غير منتظر من الألوان والخطوط، أراد دْييغو أن يصبغ على طبيعتها الكلبية قوة غامضة، تليق بقوة الحيوانات العجائبية، التي تسمح بردع الموت عمن يرافقها، كما لو كانت ملاكًا منقذًا حقيقيًا.

ـ آه يا سومْبْرا...؟ هل نفدت قوانا؟

فكّر في القصتين وصُوَرهما، على قطعتين ورقيتين محفوظتين في واحدة من العلب الموضوعة هناك في الأعلى. ظلتا راكضتين، مجمدتين فيما يشبه صورة ثابتة من دون تتمة منطقية تمنعه من التقدم. لطالما صادق مرات ومرات على الوعد بتسليم المادة إلى ناشره الأخير، الذي بدأ يرد على مكالماته الهاتفية بتفَضُّل خفي يليق بمن يتعرف على أعراض لا يبدو أنها ستخف قريبًا، ويؤكد له أنه لا داعي للعجلة، وأنه ينبغي التصرف بهدوء.

لكن سرّ هذا النوع من الأمية الجديدة، وهذا التفكّك المورفولوجي والبصري، لم يكن يكمن في الانحباس الإبداعي المعروف، بل إن أسباب فتوره تكمن في الهزة العاطفية والدّوارة التي جعلها تحوم حوله عدة أشهر بعد أن قررت ألْما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن تعود، بصفة نهائية، إلى مشروعها البيولوجي في الأراضي الساخنة. وكما لو أنه يغذيه حقدٌ عبيطٌ لبطلِ مسلسل تلفزيوني، انساق وراء السراب والطمأنينة الكاذبة التي تمنحها إياه هذه الثلاثمائة متر مربع، فقبل بدوره أن يقتني غارقًا بخرق واضح في قرض بنكي وقّعه على عدد غير محدود من الأقساط، مع فوائد لا تكف عن التزايد، تتكاثر مثل آثار فيروس أخذ يسيطر، شيئًا فشيئًا، على كل متر مربع من منزله. وحيدًا، تحت رحمة إعصار مضر لم يكن بمقدور أي واحد من شخصياته العجائبية أن يواجهه، ظل مقيمًا على ضفة لا يمكن لأي شيء أن يعيده منها.

هكذا، وكما في المسالك الوعرة التي تشكل صورة رمزية غير مقصودة، كان فعل الخروج المادي من البيت يبدو كأنه يحمل المعنى الخفي لضرورة البحث عن قوة الخيال السابقة في أعماقٍ نسي كيف ينزل إليها. ولم يكن ذلك بسبب انعدام النَّفَس الكافي للغوص في ذلك المستنقع، بل لجهله بالقيمة والقوة اللتين قد يستلزمهما التخلي عن سومبرا والاستكان إلى الأبعاد المادية لجغرافية جديدة لا تتجاوز خمسين مترًا مربعًا صارت أكثر فأكثر هشاشة، ومن دون رأسمال خاص، بعد أن ترك جل أغراضه في قبو أعاره إياه أحد أبناء عمه بضواحي بوغوطا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ مستحيل، يا سومْبْرا ـ قال وهو ينهض ليدخل.

*

بما أنه لاحظ أن سومْبْرا لا تريد أن تتحرك بين الجدران التي تفصل الآن الفضاء القديم عن الصالة وقاعة الأكل، قرر أن يشعل المدفأة قبل أن يُحضّر شيئًا من الطعام. كان بريق النار وفرقعة الخشب يبعثان الهدوء في نفسه. لحسن الحظ، لم يغيروا الضوء الذي ينير الحديقة، كما لم يغيروا مصباح بهو المدخل. أنزل من الطابق الثاني مصباح المكتب والمائدة الصغيرة التي دأب على تناول الأكل فوقها في الليالي الأخيرة، ثم وضعهما قبالة المدفأة، وأطفأ كل الأضواء البيضاء.

Telegram:@mbooks90

ـ لدينا هذا على الأقل ـ قال لسومْبْرا عندما احتدم لهيب النار.

وبينما كان ينتظر أن يغلي الماء لتحضير السباغيتي، تذكر تلك المرأة التي صادفها أكثر من مرة عند الباب الرئيسي للمنزل، حيث اكترى الاستوديو. ذات مرة، أمسكت هي الباب حتى يتمكن من حمل بعض العلب من الكتب إلى أعلى. دائمًا كانا يتبادلان التحية بالمصافحة، دون أن يقدم أحدهما نفسه للآخر، بإجراءات شكلية أو نجل يبدوان من عصر آخر. كان قد اكتشف في عنقها ومقدمة صدرها ما يشبه كوكبة من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشامات الواضحة ففكر، بنوع من الدهشة، أنه لم يسبق له أن صادف أحدًا له عينان خضراوان. قدّر أن عمرها يزيد بقليل عن الثلاثين، سنتان أو ثلاث سنوات أقل من ألْما.

بعد أربعة أشهر سيُكمل ثمانية وأربعين عامًا. كان يدخل، كما قرأ في مكان ما، ليس فقط إلى مرحلة الشيب وتساقط الشعر بل إلى أول انتقال نحو المخاوف المباغتة وغير الملموسة، كأنها تهديدات يُلقى بها من الظلام وربما تقلب نومه رأسًا على عقب. وكان جزء من هذه الفكرة يغذي أحداث أحد كتبه المتوقفة، وهو الكتاب الأخير الذي بدأ يشتغل عليه. رجلٌ مدمن على الاكتئاب، يخلد للنوم ذات ليلة، وبعد غيبوبة طويلة ينهض ليكتشف أنه أصبح من دون ذاكرة. لا يعرف من يكون، ولا أين هو، فيهيم في شوارع المدينة مثل النائم يسير ليلًا، يحاول فكّ شفرات واجهات المنازل والأوجه التي تمر جانبه، محدثة أصواتًا ومتحدثة بلغة تزيد من دوخته. يدرك، وقد سيطر عليه صحو غريب، أنه بحاجة ليجد أصل نسيانه، وأنه كلما تقدم كان يرسم خارطة جديدة لواقع، لها محتوى وحدود لا تتشكل ولا تترك أثرًا إلا بتزامن مع انتقال خطواته. وليلًا، عند ظلال الأشجار، يرى نفسه في الأحلام مثل تائه يتقدم عبر أدغال غابة لم يطلق عليها أحدٌ اسمًا من قبل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انتهى من تناول الطعام وألقى بآخر قطع الخشب ليؤجّج النار في المدفأة. كانت الكلبةُ قد جلست فوق قدميه. داعب رأسها مكررًا الحركة البطيئة نفسها لهذا المساء، وعاد ليفكر في ذلك الامتياز المرغوب الذي تتمتع به سومْبرا: إنها ليست ملزمة لتعبر بالألفاظ عما يشوش ذهنها، ولا شيء يمكنه أن يحرق قلبها أو يحطمه؛ وهي ليس ملزمة بأن تترجم إلى صور، أو بصوت مرتفع ولا كتّابةً الخوفَ من أن تعيش بفكر قلق يهتزّ في صدرها طوال الليل مثل هبة ريح أخرى من دون اتجاه. لكن، كيف له أن يعرف، حقًا، أن قوى خفية لا تداهم سومْبرا؟

بحث في جيب السروال عن رقم الهاتف وعنوان العيادة البيطرية التي وجدها في دليل الهاتف. كانت على بعد بضعة أميال من بيته، وقد أكدوا له أنهم يقدمون الخدمات ليل نهار، وحتى أيام الأعياد، مثل يوم الاثنين. لم يكن يرغب في أن تأتي الطبيبة البيطرية التي عالجت سومْبرا في السنوات الأخيرة. امرأة تخرجت مؤخرا، يدفعها تفاؤل لا يكل، لا شك أنها ستحاول أن تقنعه بتسليم الكلبة للتبني رغم تقدمها في السن. راجع الأرقام السبعة، وهو يفرغ جرعة النبيذ المتبقية في الكأس، أحس في أعماق حلقه بمذاق مرّ، مؤقت، ونافذٍ مثل تلك الرائحة التي انتشرت في كل أرجاء البيت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

*

بسط الفراش في نفس مستوى الليالي الأخيرة. سوّى الملاءات، مدّد اللحاف وعدّل الوسادات. وكالعادة، رأى أن سومْبْرا ظلت تنتظر لينام ويخفض ضوء المصباح حتى تمتد إلى جانبه. كان أحد الجدران لا يزال يحتفظ بالدفء المنبعث من المدفأة.

ـ لحسن الحظ، ياعزيزتي سومْبْرا ـ قال دْييغو. ستكون باردة هذه الليالي. لقد رأيتِ كيف هو القمر، هناك في الخارج، فوق الجبال.

وعزا الصمتَ التام في الشوارع من حوله، من دون أصوات المحركات المستمرة في هذه الزاوية أو تلك، إلى أن اليوم كان يصادف أول عطلة نهاية أسبوع طويلة منذ شهور. تذكر آخر مرة خرج فيها من بوغوطا هو وألْما رفقة سومْبْرا، في جولة عبر حظائر وتلال في الشمال الشرقي. كانوا قد وجدوا بحيرة صغيرة لم تتعب سومْبْرا من الدخول إليها والخروج منها لتلتقط العصا التي كان يلقي بها إليها، بينما ألْما تراقبهما في صمت، نصف مبتسمة، كأنه كان ينوّمها ذلك اللعب الذي يبدو أنه لا ينتهي. كانت سومْبْرا لا تزال في شبابها وحدث ذلك وقتًا طويلًا قبل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن ترفض ألْما العودة لتراه مرة أخرى.

- مستحيل، يا عزيزتي سومْبْرا - كرّر دْيِيغو.

حينئذ، وهو يجول بنظره في سقف الغرفة وامتدادها، رأى مرة أخرى، كما في سراب، تلك الأشياء التي بقيت هناك لمدة طويلة: الخزانة الزجاجية مع الكتب، المناضد الليلية، الكرسي الأزرق، بعض رسوماته الموضوعة داخل إطارات، السرير المزدوج. لم يفاجئه الخطأ فاكتشف أن لها صلابة وبريق الأشياء التي وجدت مكانها النهائي، والمرفأ الذي ترسو فيه. فكّر في الفضاء الضيق الذي ينتظره، مع الصناديق المنضّدة والحقائب التي لم تُفتحِ بعد. ألن تكون أيضًا تلك هي اللحظة التي يصادف فيها شبح ذلك المستأجر الآخر الذي سكن البيت من قبله؟ أهو صاحب البيت الأصلي؟ لا شك أنه قد خرج بدوره من تلك المنطقة بحركة أولى خاطئة، واعيًا، بين الخوف والندم، بأنه، وهو يترك وراءه آخر ما يؤنسه، كان يفقد لا محالة جزءًا جوهريًا من طبيعته. ربما يكون قد تخيل أنه في العينين الزرقاوين كانت توجد شفرات تباشير التعافي؛ هدنة يسترجع فيها أنفاسه ويرتب فيها أفكاره المبعثرة. حين اختفت الهلوسة أطفأ الضوء ولمس سومْبْرا بفخذه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- إنه لا يزال أمامنا وقت يا عزيزتي سومْبْرا، نامي مطمئنة - قال.

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نظام وفوضى

كانت نسيجُ الجوّربيْن السوداويْن المُغشّيين اللذين اختارتْهُما يمنحُ لباسَها مظهراً لائقًا، يكاد يكون احتفاليًا. تأنّقٌ يليق بحضور مأدبة أو حفل راقص أكثر مما يليقُ بالسهر على ميت، فكّرتْ. وبالنظر لما تلقته من إرث عاطفي، لم تؤمن قط بأفعال غير واعية، وقرارات ناتجة عن الصدفة، سواء تعلق الأمر بحفلات منزلية، أو بالبحث عن تنسيق ملابس لائقة. إنه لا وجود للصُّدف، كما كان يؤكد واحد من الآراءَ التي ربّاها عليها والدُها. وما من شيء يحدث دون اتباع خطاطة دفينة، وأنموذج عميق يقيس الحدة السرية لكل أمر، مهما كان خفياً. لذلك، لم تندهش لرؤية المطبوع على نسيج "ليكْرا" فوق الجوربيْن، حيث يتكرر زخرف يمثل نَفَلًا وحيدًا ذا أربعة أوراق؛ رمزٌ أساسي للسعادة التي يمكن أن يمنحها حسن الحظ واللقاءات الغرامية، لكنه أيضا رمز للوداع النهائي وذكرى لانبعاث لا يُصدَّق.

لم تكن مُتطيّرة بطبعها. لكنها، وربما بسبب أسبوع قضته من دون نوم، ومساءات لا تنتهي، ظنت أنها قد وجدت تناظراً لا يُضحَد بين الأوراق الدقيقة، المُطرّزة بألوان رمادية، فأيقنت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنها لن ترى والدها مرة أخرى. أرخت تنورتها وبحثت عن جوربين آخرين. لاحظت أن اللون البُني الداكن يجعل ساقيها يبدوان في المرآة أكثر طولًا ونحافةً. اكتشفت، كما لو أنها تستعد لعرض أزياء، أن ذلك اللون يُحسّن صورتها، ويبرز متانة وركيها وفخذيها. لو شاءت، فكرت، لن تجد أي حرج مخجل في إقناع أي كان بأنها لا تزال جميلة، مرغوبة، وتبتكر وضعيات مدروسة، ومظاهر جذابة. منذ أيامها الأخيرة مع فرانسيسكو، قبل أكثر من سنتين، لم تعد لتفحص تفاصيل جسدها، ورغم أن ذلك الهيجان الشبابي كان يخذلها لفترات، لاحظت، بهلع أكثر من الحزن، انتفاخًا خفيفًا على مستوى البطن. كانت تعرف أنه لا أحد قد ينتبه للسمنة المبتدئة لكنها ظنت أنه لا بأس أن تذهب إلى أحد النوادي الرياضية.

حينئذ، بحثت مرة أخرى، وهي تقترب من المرآة، عن شكل بقعة جلدية غير منتظرة ومثيرة للقلق في وجهها وعنقها. قد يرى أي مناصر لمبدأ التأويل النفسي في ذلك الجرد المفاجئ أعراض الإحباط، والذهول الذي كانت تمر به منذ الفجر، بعد أن تابعت في صمت رفقة الآخرين شروحات الطبيب، ذلك الإجراء الإخباري الذي دائمًا ما يجري وفق لغة مهذبة لكنها غامضة، وشيئًا ما رحيمة، لنقل أمر عادي من دون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شك، متوقع ومقبول من لدن شخص يضطلع بمهمة إخفاء أسرار الصحة والموت.

جلستْ على حافة السرير لتنتعل حذاءها ثم نظرت إلى الساعة فوق المنضدة. فكرت أنه لا يزال لديها بعض الوقت كي تستريح هنيهة. ضبطت المنبه ليرن بعد أربعين دقيقة، خلعت مرة أخرى تنورتها ثم اندست تحت الأغطية. لم تجد عناءً في إغماض عينيها، وبعد رعشة برد طويلة جمعت ساقيها وعانقتهما. وبينما هي تأخذ شيئًا من الدفء وتقترب ببطء من النوم، داهمتها ذكرى ليلة من الليالي حين كانت في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها. ذكرى لا تطفو إلى السطح إلا لمامًا، ورغم دراميتها النسبية، كان لديها ما يشبه وعيًا غير واقعي بكل المشهد، كما لو أنها كانت تنتمي في شكلها وتفاصيلها إلى ذكريات شخص آخر.

كانوا عائدين إلى بوغوطا من لْيانو، عند نهاية عطلة خلال شهري يوليو وأغسطس. لسبب ما، كان الوقت متأخرًا وفي الليل كانوا يجتازون الأرض القاحلة. كانت السيارة، وهي عربة قديمة من نوع كْريزْلير زرقاء ذات بابين، تصعد بصعوبة وسط الضباب كما لو أنهم يمرون عبر أوراق كثيفة ومتشابكة. كانت أمها وأختها قد نامتا في الوقت نفسه تقريبًا، وبما أنها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعرف أن والدها لم يكن متعودًا على هذا النوع من المتاعب الجسدية راحت تبحث بلهفة عن عينيه وسط ظلام المرآة العاكسة. كان جذع جسده مندفعًا إلى الأمام، ويمرر يده على رأسه وجبينه، ربما ليزيل العرق. لم يكن يبدو خائفًا، بل ربما فقط مرتبكًا بسبب ما يشبه جدارًا أبيض يمر فوق رؤوسهم، تحركه هبات الريح ومنه ينفصل بريق بعض الأضواء الساطعة. كما لو أنه يردد ترانيم، وحتى يُطمْئن نفسه لا محالة، كان والدُها يدندن أجزاء من أغنية عند كل منعرج. كانت سُلّمًا بطيئًا ومن دون نظام يتظاهر من خلاله بالتحكم في الوضع. كانت سيسيلْيا ترافقه ذهنيًا، وخلال لحظة ما اعتقدت أنهما المسافران الوحيدان في تلك الطريق. فجأة، توقفوا في الحين. تلفظ والدها بشيء غير مفهوم، ثم استيقظت أمها وأرادت أن تعرف ما يحدث. سمعت سيسيلْيا أصوات فرامل ورأت أضواء على اليمين. دون أن يقول شيئًا، ترجّل والدُها، عاد بعد بضع ثوان ثم تلفظ بجملة تذكرها سيسيلْيا دائمًا كما لو كانت مأخوذة من حوار عاطفي:

- إننا على شفا هاوية.

لم يتحرك أحدٌ لمدة تفوق دقيقة من الزمن، كما لو أنه كان عليهم، كي يخففوا من الخدر المباشر، أن يكشفوا عن مصدر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأطياف غير الواضحة أمامهم، وعن الهبّات المقلقة الصاعدة من الضباب، كأنها شرارت تنبعث من كور حدادة غارق. ورغم أن سيسيلْيا ستنسى مع مرور الوقت كيف خرجوا من ذلك الحادث الطارئ، ظلت دائمًا موقنة بأنه، بينما كانت تنساق تلقائيًا مع تعرجات الطريق، كان والدُها ينغمس في واحدة من مناوشاته العلمية، يبحث في ذهنه عن إثبات وجاهة فَرَضيّة من الفرضيات، أو البرهنة النهائية والمطلقة عن مُسَلّمة من المُسلّمات التائهة، أو أي كيان منطقي أساسي يضع علاقة مع العناد الغريب للحياة، ومع الألغاز من دون مفاتيح التي تتراكم في أي قلب وقد ترثها هي في نهاية الأمر.

*

أيقظها رنينُ الهاتف. قبل أن تجيب، تأكدت أنها قد نامت لأكثر من نصف ساعة. في السماعة، كانت أمها تسألها لماذا لم تخرج بعد، وفي نبرة صوتها شيء من اللوم. ربما كانت تريد أن تتهمها بقلة الاحترام لأنها لم تكن حاضرة في إجراءات الجنازة. أرادت أن تجيبها أنها لم تجد الجوربيْن المناسبيْن، لكنها أدركت أن ذلك ربما يبدو أمرًا سخيفًا، وأكدت لها أنها ستكون هناك في غضون بضع دقائق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صفّفتْ شعرها أمام مرآة الحمام ثم وضعت شيئًا من الواقي على الشفتين المُتشقّقتيْن، الخشنتيْن، كما لو أنها ظلت خلال الساعات الأخيرة تحت رحمة الريح. تأملت العينيْن اللّوزيتْن، المنتفختيْن قليلًا والمحمرّتين، والأنف المستقيم، وجوانب الفكّ السفلى البارزة. أكثر من مرة، بضعة أيام قبل أن يكف عن لمسها إلى الأبد، قال لها فْرانْسيسْكو، وقد ألهمه حماس أي لقاء ليلي عابر، بين شكوى هادئة وأخرى، إنه يرى في تقاسيم ذلك الوجه سحرًا فريدًا. كانت سيسيلْيا تصدقه (كما أنها يمكن أن تصدق ما قد يقوله لها من نفاق، كأن يؤكد لها أنه يجد في نظرتها حكمة العالم المفقودة أو الانتصار على الانقضاء الحزين للزمن)، لكنها اليوم تعرف أنه لم يكن هناك غير تكرار لمجاملة تنازُلٍ، وهي آخر وسيلة لرجل متردد وخائب. وعلى الرغم من أنها كانت تربط ذلك الحل العابر بقدوم السعادة، لم تكن تجد بدًا من أن تجد في تلك الأحداث النهائية مع فْرانْسيسْكو نتيجة حماس أخرق.

تناولت بعض أقراص الأسبيرين قبل أن تخرج، وحتى تتجنب أن يعرض عليها أحدهم أن يعيدها بعد الحفل النهائي إلى الشقة قررت أن تأخذ سيارتها. وهي تنزل في المصعد، فزعت لإمكانية أن يظهر فْرانْسيسْكو في الجنازة. في وقت متأخر من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ليلة أمس، ترك سلامًا مقتضبًا في المجيب الآلي. لو رآها والدُها لضحك من ذلك التوتر الأبله، من ذلك الحنين المتطفل، الذي لا مبرر له رغم الحداد. في مكتبه، ذات صباح، مع آثار سكر نتيجة شرب عدة كؤوس من الويسكي وقضاء ليال طويلة دون نوم، اعترف لسيسيلْيا، بأسف مقتضب، أنه كان دائمًا يفترض في فْرانْسيسْكو غموضًا غير منطقي، وشعارًا مبسطًا وغير متين لسر لا فائدة منه. قال ذلك في إطار سلسلة من التهكمات الرياضية القاسية التي كان يتقاسمها معها، والتي كان يضعها ليصف ويرفض العالم الذي يحيطه به، ولم يكن مخطئًا.

*

لم يكن شيء في الشارع ينم عن تلك الخطوة الحميمية نحو الموت. لا وجود لأي تغير مقلق في الجو، ولا لأي إنذار أو رسالة خارقة. غير مصدقة، وجدت سيسيلْيا في الخارج نفس السماء الصافية كما في الأسبوع المنصرم، وتلك الشمس الاستثنائية التي تجعل الأشجار تلمع، والضوء الرائع المنتشر فوق الجبال، ضوء كان في تلك الفترة، رغم الحر والهدوء الهش، يطرد أي ظل للفتور. منذ مدة طويلة أدركت سيسيلْيا أنه، بحكم منطق التشويش الذي يهز تلك المدينة، فإن الاختفاء النهائي لأحد، عنيفًا كان أم غير عنيف، لم يعد يشكل ظاهرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مقلقة. في نهاية المطاف، كان الموت يتقدم هناك بعناد حيوان ضخم، لينتج عن ذلك ما يشبه لحظة مضطربة تُشكّل أساس بيت هش لمن يتسكعون في العراء بأعداد متزايدة.

عَزَتْ تلك القناعة المعادية والقاتمة إلى نوبة جديدة من التعب وإلى بطء حركة السيارات. لكن الأمر كان يتعلق بانزعاج داهم أيضًا والدَها في أكثر من مناسبة. كان الجزء الآخر من الميراث، لا غنى عنه مثل بنود أي وصية، وقد وجد طريقه إليها، مثل تشعُّب خفيّ لتلك الصيغ الرياضية أو أحد الجينات الوراثية المشتركة. وهي تراجع خلال الليالي المنصرمة ملاحظات والدها الأخيرة الخاصة بالكتاب الذي كان بصدد تأليفه، اكتشفت أنه بالنسبة إليه، وقد اجتاحه ما يشبه التصوف الرياضي، فإن المدينة قد تحولت في نهاية المطاف إلى معادل مباشر لمنطقة مضطربة من دون خرائط، تجبره على البحث عن مخرج بطريقة عشوائية وغير منتظمة. كان بودها أن تسأله من أين كانت تأتيه تلك الجمل التي تستحوذ عليه من حين لآخر.

*

كان معظم من يملؤون الصالة طُلاّبًا، من طلبة والدها ومن طلبتها. وجدت أيضًا مجموعات صغيرة من الأقارب، بعضهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتكئون على النوافذ، ويتبادلون في همس، من دون شك، آخر النوادر غير المتوقعة أو الحزينة عن أقارب آخرين. حيّت عدة أساتذة من زملائها وزملاء قدامى لوالدها، الذين أبدوا أسفًا صادقًا وهم يعانقونها. رغم أنه في السنوات الست أو السبع الأخيرة انسحب بشكل رسمي من الوسط الأكاديمي - بعد أربعين عامًا من التدريس والبحث العلمي - كان شخصه لا يزال يشكل حضورًا حقيقيًا وضروريًا. قليلون جدًا من يستطيعون، بعد التعرف عليه، نسيان ذلك الرجل الفارع والنحيف، بأنفه المعقوف وعينيه الكستنائيتيْن النافذتيْن، وهو يبْسُط على سبورة، بسلاسة رسام متمرّس، الحُجّة الكاملة والمقتضبة لحساب رياضي كان يبدو قبل ثوانٍ مغلفًا بهالة من السرية، مجردًا وبعيدًا عن المتناول، كما لو أنه يفك أحجية تحكُمها بنيةٌ خارقةٌ. وهي في بداية مشوارها المهني، سمعت أكثر من مرة على لسان بعض الأساتذة أن والدها، دون عناء ظاهر وبمرح لم تعهده فيه في البيت، كان بإمكانه أن ينتقل من الحديث عن البراهين الأساسية في الهندسة التوافقية إلى الطبيعة الخادعة لحدسية غولدباخ (07) أو مبدأ النقصان لغوديل (06).

لذلك لم تستغرب لرؤية ذلك الاستعراض الطويل الذي كان يتقدم حول التابوت. كانوا جميعًا، دون استثناء وبنفس الحركة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الوقورة، يطلون كمن يطل على أعماق كوّة. لا شك أنه بهذا التأمل - برتوكول دائمًا ما كانت تتركه لأنها تعتبره غير مفهوم - كانت تتكرر صيغة جماعية لطرد مقامات الموت الخفية. بعضهم كانوا ينظرون بإمعان عبر نافذة الصندوق، كأنهم يبحثون في تلك الهيئة المتصلبة، وربما الوديعة، في ذلك الشبح الجديد الذي ما زال مرتبطًا بفضاء الأحياء، عن المادة الباطنية لحياة جديدة، في مأمن من دسائس الدنيا.

سمعت حينئذ، وهي تبحث بعينيها عن والدتها، أنه في بعض الجامعات كان يتم التحضير لعدة بورتريهات لحياة والدها، كجزء من تكريم له بعد وفاته كان مرتقبًا خلال الأسبوع التالي. ربما كانت الفكرة ستثير مخاوفه، فكرت سيسيلْيا، وهي منتبهة مع ذلك إلى التفاصيل التي كان يكشف عنها أحد العمداء بتأثر.

نظرًا لأنه كان ملاحظًا جوّالًا، وظل ينتقل خلال سنوات من قارة إلى أخرى، فإن والدها كان يحترز من القرابين المقدمة إلى الجماعة، ومن ولاءات الجمعيات أو رابطات المثقفين، وكل ما يرتبط بذلك من تنويعات مُخجلة من الوطنية المبالغة والمديح المفرط للثقافة ذات الطابع المحلي. وعلاوة على ذلك، ورغم أنه أصبح من ألمع الرياضيين في أمريكا اللاتينية، مع اعترافات غير عادية ومستمرة في أماكن مثل جامعة برينستون، لم ينظر قط

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى النجاح بوصفه أمرًا بارزًا، واعتبر امتيازات الشهرة طوارئ خادعة.

*

رأت شقيقتَها تبتسم وهي تتحدث، في عمق الصالة، مع زوجين من أصدقائها. منذ أن وصلت إلى بوغوطا، منذ اللحظة بالذات حين رأتها تنزل من الطائرة التي كانت تقلها، رفقة غوستاف، من فرانكفورت، أدركت سيسيلْيا أن أختها جاءت مستعدة لألاّ تفقد رزانتها، وألا تنساق وراء أي نوبة بكاءٍ غير لائق، ولا أي نوبة تأثر مزعج، على الأقل أمام أشخاص لا تعرفهم. نظراً لنضج مبكر ساهم فيه أبواها مبكراً بشيء من القلق، سرعان ما تحولت شقيقتُها إلى روح مُنفّرة، مع استقامة صارمة تليق بامرأة مفرطة في التديُّن. كانت تبدو كأنها في غنى عن أي شيء، ولا يقض مضجعها أي طارئ، لا تفقد السيطرة أبدًا، وفي ألمانيا، رفقة غوستاف، اعتنقت ما يشبه مذهبًا إيكولوجيًا ذا أهداف أخلاقية كان، كأي شكل من أشكال الغشاوة الصوفية، معتقدًا تنظرُ من خلاله إلى الآخرين بازدراء عطوف.

ربما، فكرت سيسيلْيا، هناك يكمن أحد الأسباب التي جعلت المراسلات تصبح قليلة بينهما خلال السنوات الأخيرة، بل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شبه منعدمة، ما أدى إلى خيبة والدتها. ورغم أنها لم تكن تريد أن تقلل من قيمة أو عمق حدادها، ظنت أنه بالنسبة لأختها كان موت أحد مجرد دورة من دورات الطبيعة، يمكن فهمه تمامًا. وقد علقت بشيء من هذا القبيل على انفصالها عن فْرانْسيسْكو. ثم تصورت أيضًا، بعد أن حيّت بقبلة سريعة من كانوا يرافقونها، أنها لو حدثتها عن الشك الذي داهمها قبل بضع ساعات حول ملاءمة أو عدم ملاءمة نسيج جَوْربيْن مُغشّيين، فإن شقيقتها التي لم تبرح منذ سنواتِ الجامعة نفسَ اللباس المكون من سراويل دجين، سترة من قماش الألْبكة، حذاء رياضي وحقيبة ظهر، قد تسخر من تفاهاتها.

*

حين سألت، أخبرها أحدهم أن والدتها قد نزلت إلى المقهى. اعتذرت من الجموعة وحين استدارت وجدت نفسها وجهًا لوجه أمام غوْستاف، الذي كان يحمل كأسين من النبيذ الأحمر. بحرص كبير، امتثل الرجل في الحين، ودون أي حركة، للأمر الفوري الصادر عن أختها بأن يترك كأسًا لسيسيلْيا. أخذت هي قهوة ورأته يبتعد ليبحث عن كأس آخر، يشق طريقه وسط الناس. أحيانًا، كانت تتأثر للطيبة الضعيفة لهذا الرجل ذي العظام الكبيرة، طيبة كان يستجيب بها دائمًا لأوامر أختها،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ليكون دليلًا على التصرف المثالي للتلاميذ، والحب الصبياني لمن ينبطحون أمام جمال بتنويعات غريبة. ومثل وميض، تذكرت مشهد حفلة نهاية السنة حين أراد غوسْتاف أن يشد على جسدها. كان سكرانًا بعض الشيء، فترنّم في مسامعها ببعض الجمل باللغة الألمانية. لم تفهمها سيسيلْيا، لكنها بدت لها مألوفة، تكاد تكون رقيقة. ومن خلال الترجمة السريعة التي حاول أن يقوم بها غوسْتاف، بين ما يشبه تلعثمًا مورفولوجيًا وأصواتًا لغوية غامضة، ظنت سيسيلْيا أنها فهمت أنه بالنسبة إليه كانت هي كامرأة أجمل من أختها. تظاهرت سيسيلْيا بابتسامة شك وارتاحت لانتهاء ذلك البوليرو أو تلك الأغنية التي كانوا يتراقصون على نغماتها. وبعد ذلك الاعتراف، بدا وكأن غوسْتاف قد فقد توازنه، فعاد إلى مقعده ثم نام بسهولة وسط الصخب والضحكات. لم يذكرا ذلك الحدث في أي لحظة ولم تفهم سيسيلْيا قط اندفاع غوسْتاف، ولا تلك الدينامية الخفية التي حركت فيه تلك الرغبة المفاجئة تجاهها.

خفق قلبها بعنف، وقبل أن تلج المقهى قررت أن تشعل سيجارة. من إحدى نوافذ الرواق رأت أن السماء في الخارج كانت لا تزال صافية، لا تشوبها ولا سحابة واحدة. يوم كسائر الأيام، فكرتْ من جديد، وهي تعي أن ذلك، على أي حال،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا ينطوي سوى على نذير إبهام مفرط في السهولة. أثناء ذلك، دنا منها ثلاثة طلبة، ومثلِ عشاق نجالى، قدم لها كل واحد نفس التعزية. تحدث ثلاثتهم بحماس عن والدها، بنبرة متكلفة تليق بالمناسبة. أرادت سيسيليا أن تستمع إليهم دون أن تبدو صموتة أو متعبة؛ وبينما هي تومئ موافقة بحركة من رأسها على أي نعت من نعوت المديح، أيقنت أنه في مثل تلك الحالات تكتسي حياة أي متوفى نفس الخصائص المميزة لحَظٍّ يثير الغبطة، وحيث الأسلوب والغاية من طريقة ما في العيش توقظان المغفرة الفورية للجميع. تهدأ الأحقاد وتخضع فضائل الميت وذنوبه للتحريف، بالتغطية على المساوئ المخجلة بمحاسن قوة الروح، حتى يظل شبحه بهذه الطريقة بمنأى عن انحرافات الأحياء وتفاهاتهم. لكنها لم تعرف، إن اقتضى الحال، إن كانت ستقدم غفرانًا مماثلًا إلى فْرانْسيسْكو، لتمنح قيمة لا تقدر بثمن لظروف حياته البائسة.

في الحوار الدائر بين الآخرين، الذي كانوا يريدون إقحامها فيه، استطاعت أن تتأكد أنه، رغم بعض حالات الحسد المعدودة، كان والدُها يشكل بالنسبة للعديد نموذجًا فريدًا، وغاويًا سخيًا من دون تعقيدات، حظي بمكانة خاصة في الذاكرة. ليس بسبب عبقريته في تناول الفرضيات الرياضية فحسب، بل أيضًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لاستعداده للاستماع لأي كان، وهذ خاصية اجتذبت إليه في السنوات الأخيرة، مثل ضوء مصباح، عددًا غير مألوف من الشباب.

*

لم تجد والدتَها في المقهى. دفعت ثمن كأس نبيذ أخرى عند صندوق الأداء وقررت أن تبحث عن طاولة. فرّج عنها أنها لم تجد هناك أحدًا تعرفه. بدا لها من الأحسن أن تتفادى للحظة أي حديث. تصورت أن حالات الحزن تُنتج نوعًا من حالات التخدّر، ومن الخدر الذهني كذلك الذي يرافق المتسرنمين، والحقيقة أن النعاس كان يغالبها بوتيرة كبيرة وظنت لبضع دقائق أنها تنام بعينين مفتوحتين، مع وضعية وحركات أي شخص مستيقظ، لكنه، في الوقت ذاته، غائب عن هذا العالم. حينئذ، ورغم بساطة الأمر وطابعه المتوقع، بدا لها من الطبيعي أن تظنّ أنه، كما هي الحال في وهم خيالي، كانت تنتقل منذ الصباح وسط ظلال حلم اعتباطية.

وهي تساير المزحة التي كان التعب يلعبها معها، استنتجت أنه لو بذلت ما يكفي من الجهد، قد تستطيع أن تقفز من جديد إلى جوانب أي يقظة، وحين تكون مستيقظة ستدخل، كما دأبت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على ذلك مرارًا، إلى مكتب والدها ثم تحييه بقبلة على كل خدّ، كما يحلو له، في تكرار لاندفاع عائلي يستعيد السعادة والنظام. حرّكت رأسها وحدست، بشيء من الحنق، أنها لو تركت تلك الأفكار لتسيطر عليها فلن تتأخر في الانهيار. شربت جرعة مما بقي من القهوة ونهضت.

حين عادت إلى الصالة، وجدت أمها جالسة إلى جانب العم غابرييل. النظارات السوداء، الهندام الأسود، المنديلُ الحريري الرمادي المشدود بعقدة مضاعفة إلى العنق، الشعرُ شبه الأبيض المشدود على شكل ناصية، كل هذا كان يمنحُ أمها هيئة مغنية أوبرا متعبة، وهي تتحرك فيما يشبه سباتًا وقورًا، متحاشية بسلوك حازم ومتعجرف الهرج والمرج المزعج في الاقتراب من شرط الترمّل ولحظات وحدته المفاجئة. كمن يتوجه نحو أبي الهول، كان كل من يصل إلى الصالة يقترب منها بحذر، وعند مستوى أذنيها، يهمس لها بجملة قصيرة نوعًا ما. تصورت سيسيلْيا كل واحد يصوغ جزءًا من رسالة عزاء طويلة وسرية. وكانت أمها تجيب على كل واحد منهم بتنهيدة وحركة قصيرة من رأسها. نظرًا لغرابته، كان هذا المشهد من التكشيرات الدرامية يربكُ سيسيلْيا ويُحيرها. ورغم العلامات البديهية لروحها المنهكة بالألم، كانت على يقين من أن أمها لن تستسلم بدورها إلى ملاذ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السرير الحزين، يائسة في غرفة بستائر مسدلة. ولن تحبس نفسها كذلك في حداد بغيض، يشبه حداد امرأة عجوز من نساء البحر الأبيض المتوسط. لا شك أن المرح والعناد السعيد اللذين كانت تدور حولهما كل ظروف حياتها سيقفزان بين فينة وأخرى مثل تشنج سعيد وسيصيبان بعَدْواهُما للحظة ذلك الصف الطويل من الزوار.

*

عندما حيّتها بقبلة، شعرت بالراحة وهي تشتم من جديد تلك الرائحة الخاصة التي كانت دائمًا تنبعث من جسدها، مزيجٌ ذو عذوبة خفيفة من عطر مرهم منعش تذكره سيسيلْيا منذ طفولتها. تصورت أن ذلك العبق قد تحوّل مع مرور الوقت إلى مكون طبيعي من طرق جسدها الكيميائية، فيما يشبه تحوُّلًا أموميًا لنقل الرعاية، فرغبت حينها أن تبقى بضع ثوان أخرى مختبئة في دفء عنقها، كمن يحتمي بظل جذع شجرة واقية.

Telegram:@mbooks90

- هل علمتِ بما يحضرونه في الجامعة؟ سألت بينما كانت سيسيلْيا تحيي عمها بعناق.

- نعم.

- إنهم يريدون أن أقول كلمة - قالت الأم، دون حماس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ورغم أنها لم تكن المرة الأولى التي يدعونها، فقد اتفقتا على أنه في هذه المرة لم تكن المناسبة تبدو مواتية ولا سعيدة.

ـ ليتحدث الآخرون ـ قالت.

بعد مسار قصير في مجال فن الخزف، تركته بسبب وعكة خلْقيّة عند مستوى الكتف الأيسر، اكتفت والدتها وانضبطت، دون ضغينة، لتلك الحكمة القصيرة والمريبة القائلة إنه وراء كل رجل عظيم امرأة. وبرضا متزايد، تحولت إلى ناسخة لكل الخربشات، والتعليقات، والملاحظات، والتوضيحات، واليوميات، التي كان والدُها يخطها في دفاتر مدرسية صغيرة، عبارة عن دلائل تعج بالمعلومات الخاصة بالدروس، والمحاضرات والكتب المحتملة. حسب قول والدها، فقد كانت هي عبارة عن ناسخة أساسية، ومن دونها ربما كانت أفكارُه ستنتهي مثل إشارات متناثرة تعبر عن تعب غير منسجم.

ولا تزال سيسيلْيا تذكر عن ظهر قلب التقديم الذي وضعته والدتُها للكتاب الذي خصصه أبوها للتفكير في مهنة العالم الرياضي. في نص تركيبي وشفاف، لم تكن تعترف بحبها فحسب، بل أيضًا بواقع رائع على الدوام يتمثل في أنها كانت تقتسم مع شخص ما الاندفاع نحو عيش حياة لا يمكن قياس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نفعها، حياة مكرسة للتجريد والمنطق الذي لن يساهم، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، في التخفيف من بؤس العالَم.

ـ طلبتُ من غابريل أن يتحدث نيابة عني ـ قالت عندما نهض العم ليحيي امرأة كانت تقترب منه ـ في نهاية الأمر ـ أضافت وهي تتذكّر ـ كان غابريل أعز أصدقاء والدك.

وبالفعل، وطّدَ كلاهما صداقة سعيدة، غير معهودة عمومًا بين شقيقيْن راشديْن. في العم، الذي يصغر والدها بخمس سنوات، كانت تتكرر نفس الملامح، ونفس الطريقة في تحريك اليدين والمشي، مع اختلافات بسيطة مثل الصلع المبتدئ والجذع المنتفخ قليلًا. بعد ما يشبه إشراقة متأخرة، وصفها الكثيرون بالمتعجرفة، تخلى عمها عن مهنة محاماة نشيطة ومزدهرة نوعًا ما ليكرس نفسه لدراسة الجغرافيا. حسب ما توصلت له سيسيلْيا من أخبار، كان والده أيضًا يحكيها مازحًا كي يحد من الفضيحة العائلية، فقد كان العم غابرييل قد اتخذ قراره بأن يصبح عالمًا جغرافيًا مباشرة بعد أن شاهد لوحة فيرمير(05) في متحف "ستاديل" أثناء زيارته لابنة أخيه في فرانكفورت.

لكن أهم ما كانت تعرفه سيسيلْيا، في الحقيقة، هو أن عمها كان هو الوحيد (دون احتساب أمها) الذي استطاع أن يكون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى جانب والدها خلال الفترات الطويلة من الأرق التي داهمته في السنوات الأخيرة، والتي قد تكون، مع مرور الوقت، هي السبب القوي وراء تدهور حالة قلبه الصحية. إن لم تخنها الذاكرة، فقد اكتشفت سيسيلْيا في الأسابيع الأخيرة من أول فصل دراسي بالجامعة تلك الليالي التي كان والدها يقضيها دون نوم. في البداية، وبعد أن فهمت بوضوح أنه كان يقضي عدة أيام دون أن ينام، كانت تسمعه يتسكع في الطابق الأول من المنزل، يدخل إلى المكتب ويغادره، يأخذ ماء من المطبخ، يمر إلى الصالة، إلى قاعة الأكل، والحمام، كما لو أنه يلاحق شبحًا منزلقًا لمعادلة من المعادلات الأساسية.

نظرت، حينئذ، إلى صورة أمها فعادت لتفكر، مع خوف دفين يرجع إلى مرات سابقة، إن لم تكن تلك النوبات الطويلة من الأرق تتغذى على تعب عشق خفي، وإن لم يكن السعي إلى الرياضيات يحوم حول حافز حياة عاطفية تسرب إليها الملل وانسلّ إليها الشك. رغم أنها لم تر قط والديها يتشاجران أو يتواجهان بشكل خطير، لم تكن واثقة تمامًا من أنه لم يداهمهما أيضًا، في ليلة من الليالي مثل كل الناس، الخوفُ من البقاء من دون حب.

تابعت مفزوعة تقريبًا الكم الهائل من الغرباء الذين كانوا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يحومون حول التابوت، والذين كان من بينهم من يؤدون المهمة الجنائزية مثل شفعاء في السماء. فتذكرت سيسيلْيا، حينئذ، أنها في سنوات السهر الأولى، عندما لم يكن أحد يثير الموضوع ولم تكن الحراسة الاحتفالية لعمها وهو يراقب سهر والدها قد بدأت، كانت تتصور أنه، مثل كونت كايزرلينغ مبعوث، كان والدها يبحث أيضًا عن مُسكّن لساعاته الليلية وهو يكرر في عناد تنويعات غولدبيرغ(04). كانت تتصور أنه بترديد تلك الجملة الثابتة، وتلك القاعدة التناغمية، قد يتمكن من ضبط الإيقاع المفقود لأيامه. خلال عدة شهور، كانت التنويعات الثلاثون تصعد إلى غرفتها من المكتب، تخففها جدارن البيت وتسبق بالتأكيد دخول سيسيلْيا في النوم، كأي ابتهال طفولي إلى الملاك الحارس.

ورغم أنها علمت فيما بعد أنه في تلك الفترة من حياة الطواف ليلًا كان والدُها يدْرُس، بنفس الكدّ الذي كان يواجه به أي لغز من الألغاز، ذلك التناظر الرياضي الخفي في القاعدة التي وضعها باخ، أصبحت تلك النغمة مع مرور الوقت رفيقة ضرورية لسيسيلْيا، شيئًا ما مثل ذرع واقية كي تنساب الساعات دون قلق عندما تتسكع هي بدورها، ترقُب الليل من النوافذ دون أن تتمكن من النوم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

*

أخرجتها تلك المصافحة اليدوية اللطيفة التي جاءت من أمها من ذلك النوع من الخمول، ومن ذلك الذهاب والإياب عبر الذكريات. اندهشت وهي ترى أن البعض قد همّ بالسير مع التابوت نحو العربة، فأمسكت بذراع والدتها، وودّت لو أن الحدث السابق بدأ بعد ذلك بكثير، ومثل طفلة متعبة، أن تمدد الحلم لفترة أخرى طويلة ثم تبتعد مرة أخرى.

وفي الطريق حتى مُصلى إحراق الجثث، وسط صمت هادئ تقاسمته مع أمها، وغوستاف وأختها، لم يبدُ لها أمرًا مأساويًا أن تفكر في أنه في ذلك الصباح بالضبط ربما يكون أحدهم قد استيقظ بحماس متجدد، يشكر، ببساطة يُحسدُ عليها، إشراق النهار، يتناول فطوره مرتاح البال، دون قلق ولا خوف من الموت، دون انشغال لا فائدة منه باللامبالاة أو البلاهة التي قد يصادفها حين يخرج إلى الشارع. شخص ما لا يحبطه انسجام قضاء وقت طويل وحده، ويرى عدم رؤية هذا العالم مرة أخرى بشكل لا رجعة فيه مثل سوء حظ عابر. أدركت أنها كانت تكرر بعض أفكار والدها فضحكت في ذهنها من الإثارة الخادعة التي اعتقدت أنها اكتشفت بواسطتها السبب الخفي للمناطق العليا وأرواحها الهاربة من خلال نبات نَفَل ذي أربع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أوراق.

كانت المراسيم النهائية، لحسن الحظ، أسرع مما كان منتظراً. بواسطة بضع حركات احترافية، قامت امرأة بدينة ترتدي بزة رسمية من ثوب أزرق بفتح زرّ من أزرار الفرن ثم تركت التابوت ينزلق بداخله. حين أغلقته، اختفت بسرعة في الجهة الخلفية. وفي الصمت الذي تلا ذلك، شعرت سيسيلْيا، بنوع من الدهشة، بحسرة على أنها لا تملك قرباناً نهائيًا، شهادة دقيقة، مثل لوحة سانغاكو قديمة(03)، ترضي ذكرى والدها بمعادلة شاملة، تحمل رسماً هندسياً يعبر تناظره عن الحدث السعيد في حياته.

*

كأنهم يستجيبون لإشارة ما، بدأ الحضور يتفرقون ببطء. عاد الأقرباء والأصدقاء المقربون ليعانقوهم ثم انتظروا جميعهم في الخارج، تحت شمس لا تزال عمودية. لاحظت سيسيلْيا أن الكثير منهم كانوا يتحركون قلقين من جهة إلى أخرى، بتوتر عَجَلة من هم على وشك أن يهربوا. ربما لم يكن واحدٌ منهم يعرف ما يفعله بساعات ذلك المساء الذي بالكاد بدأ. نظراً لاستغراقها، ظنت سيسيلْيا من جهتها أنه، مع مرور الوقت، قد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تحتفظ بذكرى غير واضحة ومشوهة لمشاهد ذلك اليوم. ربما لهذا السبب، وخلافًا لما كانت تخشاه في الصباح، لم يربكها العناق الخجول نوعًا ما الذي شجعها بواسطته فْرانْسيسْكو، عناقٌ برز من مكان غير مرئي. كان لديها الانطباع بأن فْرانْسيسْكو، نظرًا لتعبيرات وجهه، كان يبدو أكثر حزنًا من أي شخص آخر، وبما أنها كانت تتوقع تأثرًا عاطفيًا مختلفًا، لم يحزنها أن يودع على الفور تقريبًا ويبتعد بسرعة ليبحث عن سيارته. ولم يحزنها أيضًا أن تتأكد من أن المصائب التي فرقتهما لم تعد لها أهمية.

عندما اندست في السرير، في غرفتها القديمة في البيت (الذي تشوه شكله وحجمه، مع ذلك، بسبب الجدارين اللذين تغطيهما الكُتب)، بضع ساعات بعد أن رافقت للحظة في الصالة، تحمل كأس فودْكا، أمها وعمها غابرييل، وبعد أن تناقشت، دون حماس حقيقي، بينما كانوا يُحضّرون شيئًا للأكل، مع شقيقتها ومع غوستاف الخنوع حول عدم ملاءمة تلك البلابل لنفسية والدتها، اكتفت بالتفكير في أنه في الساعات الأخيرة عاينت، مثل تطهير درامي وقور، واحدة من فترات الأوج النهائي لأيامها. بعد أن شعرت بدفء الملاءات، وبينما كانت تسمع، كما كان في السنوات الخوالي، أنغام ميلونْغا عذبة تصعد عبر الصالة، لم يحزنها العزاءُ الواهن بأنها تمنت لوالدها حياة أطول،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فيها كثير من أمسيات اللعب والألغاز، كثير من الإشارات والحسابات العجيبة، من البوح واليوميات المكتوبة في مدن ذات اكتشافات غريبة مثل بودابيست وبرشلونة، من ليالي النوم الهادئ والعميق، لا يشوبها ضباب متحرك، ولا يكدرها صخب فوضى خفية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دعوةُ شبح

انتهيتُ رفقة خيمينا من حزْم الحقائب بين الرابعة والخامسة ظهراً. فتشتُ بعناية السّحّابات والسّدّادات، ومن الغرفة الخلفية سحبتُ الرُّزم ووضعتُها جانبًا عند الباب الرئيسي. جلستُ لحظة في أريكة الصالة وخمنتُ أنه ليس المجهود الذي قمتُ به للفور هو ما يقطع نَفَسي بل قلقُ السفر. خرجتُ إلى شرفة الشقة الصغيرة وبحثتُ عن هواء. عندما استعاد نبضي إيقاعَه الطبيعي، أردتُ أن أشعل سيجارة. ربما تكون الأخيرة، فكرتُ بعزم، وبنفس الحماس الذي طالما لجأتُ إليه لأَرُدّ على انشغال خيمينا بضعف قلبي المحتمل. رغم أن ذلك كان دائمًا كذبة متكررة، ووعدًا مخادعًا، اعتقدتُ هذه المرة أنني أكتشفُ قرارًا مستديمًا. فيما يشبه إيمانًا مصطنعًا بحياة جديدة، ومنذ ليلة الأمس، وأنا أوافق باحتراز وفي صمت، اتفقتُ مع خيمينا على تطبيق خطة كلاسيكية في السنوات القادمة تقوم على مبدأ: عقل سليم في جسم سليم. وينص اتفاقنا على أن تدخل الخطة حيز التنفيذ يوما قبل الصعود إلى الطائرة التي ستقلنا فجرًا إلى نيويورك.

Telegram:@mbooks90

نشّفتُ العرق في يديّ، اتكأتُ على الدرابزين ثم تفحصت دون انتباه كبير السطوح التي كانت أمامي. ركّزتُ نظري مرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخرى على قمة تلك الكاتدرائية ذات الأسلوب القوطي التي دأبتُ على رؤيتها يوميًا تقريبًا خلال السنتيْن الأخيرتيْن، والتي تبرز من بعيد كأنها عوّامة، إشارة ملحة، دائما جهة اليمين، ولا يبدو أنها تشير إلى مرور الزمن. ورغم الساعة، كان ثمة صمت غريب في الخارج. كانت السماء خطًا غير ثابت، به سُحُب تتحرك بسرعة من جهة إلى أخرى. تصورتُ أنه في بضعة أيام قد أنظر من زاوية مجهولة إلى منظر ما استثنائي، بنفس الفضول الأبله الذي كنتُ ألاحظ به تلك الشوارع.

لم يدهشني أن أدرك، مرة أخرى وبوضوح أكبر، أنني سأكون بعيدًا عن كل هذا لوقت طويل. كنتُ لا أزال لا أعرف إن كان الأمر يتعلق برحيل نهائي، ورغم أن الفكرة ما فتئت تخيفني، كان من المحتمل أيضًا أن أستعيد، مع مرور الوقت، في تلك الإحداثيات ميولاتي الحقيقية في الحياة. لن يكون أمرًا غريبًا تمامًا أن تكون هناك أرض الميعاد حيث، كما في مراكز الراحة، يمكن أن أداوي البقايا الأخيرة من وهن الروح الذي أبعدني عن الجميع وحاصرني فيما يشبه صحراء من الحزن لأكثر من عقد من الزمن وخلال الأيام الأولى مع خيميناء.

كما فكرتُ أيضًا أنه في هذا المستقبل القريب قد يكون هناك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقت ولن يكون من المستحيل أن أجد نوعًا من المهارة المختبئة والمتعددة، شيئًا من الحكمة الحِرَفيّة، والخبرة العملية، قد تزودني، فوق ذلك، بما يكفي من الحماس حتى لا أسقط في التسكع غير المجدي لهجرة من دون هدف، وحتى لا ينتهي بي المطاف فجأة كما في السابق، متشبثًا بأي وعد لا معنى له، وبأي عبودية، فريسةً للصدف يسيطر عليَّ هاجس العودة الغامض الذي يداهم، آجلًا أم عاجلًا، كلَّ من جاءوا من جهات أخرى. أو، لِمَ لا، يمكن أن أبتكر لنفسي دروسًا في إحدى الجامعات، وأبحث عن واحدة من تلك المواد الدراسية غير الدقيقة الموجهة للأجانب الكسالى، درسٍ بسيط وعرضي حول الفن أو السينما، شيء غريب ومسلٍ مثل نظرية الكوارث أو فن المعمار الصوفي. خلال عدة أشهر يمكنني أن أمارس، دون تكلف زائف، أي شيء، فكرتُ بارتياح. على أي، خطتي الآنية تتمثل في مرافقة خيمينا، أقتصر على مواكبة إيقاع دراستها وتمارينها اليومية على الكمان الأوسط، وأنضبط مع الروتين الذي أعتبره غير مقصود في القيام بواجباتها بصفتها مستفيدة من منحة دارسية.

*

حلّ الظلام بسرعة وصعدت ريح باردة. قبل أن أدخل،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ألقيتُ نظرة على التلال يساري، ورغم أنني لا أميل إلا مرات قليلة إلى التوقعات الدرامية حدستُ أن تلك الظهيرة ستكون نهائية بالفعل، خاتمة مشهدًا طالما رأيته يوميًا بقلق وبكثير من الاستياء. لكن، مهما وقع ومهما هدّموا، هناك في الأسفل كانت على حالها تلك المسارت والمنازل التي وشمت خارطتي الخاصة. في هذا التجمع غير المنظم من الأحياء بقيت مرسومة خطاطة حركاتي، الرسم الحميمي لمساري، الظاهري فقط من دون شك لكنه فريد من نوعه، منذ أيام طفولة وشباب أول مُعلَّبيْن رفقة أخي وموجهين من لدن والديّ نحو تناغم عائلي، بثبات وعناية واهميْن لمن ظنّا، مع مرور الوقت، أنهما تنبآ بالخبايا الحزينة للحياة.

كما لو أنني أبتلع حقًا سحابة دخان ضخمة وجديدة، سحبتُ بعمق وقوة. شلّتني وخزةٌ مفاجئة بين عظام ظهري. قد يكون من باب المبالغة، فكرتُ مبتسمًا، أن يضاف إلى هذا النوع من الوداع المُسارّي والتعويذ السري، إغماءٌ أو متاعب بلية من البلايا. لم أعد شابًا صغيرًا، كنتُ أتحرك قليلًا، لدي بعض الإهانات التي أحتفظ بها في زوايا الماضي، لكني كنتُ أستبعد كثيرًا أن تنتقم مني الحياة انتقامًا نهائيًا، وأنا أملك جسدًا ضعيفًا بعض الشيء. قد يكون هذا هجومًا في وقت غير مناسب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يزدري ما أشعر به تجاه خيمينا من سعادة صحية وحب ورغبة، أحاسيس كاملة غير منقوصة تُشكل مجموعة حظ صغيرة تبشرني بعودة واثقة إلى الحكمة.

ظننتُ أنني نصبتُ خفًّا سهلًا للتشنج وأنا أرفعُ ذراعيّ وأُمدِّدهما. تمسكت بالدرابزين، ولبضع ثوانٍ داعبت الدوار الناتج عن تلك الطوابق الخمسة نحو الأسفل. وبعد أن فقدتُ الشمس، عدتُ لأرى الظلال الحادة للكاتدرائية. هناك، بالداخل، خمنتُ، قد يكون أشخاص جاثون على ركبهم، يحدقون في المذبح، ويصلون وسط الشمعدنات والقديسين تقلقهم تضحيات القدر. تذكرتُ مجهودات والدتي كي تدخلني إلى الدين، كي أستعيد الإيمان والروح المضطربة عندما كنت أتسكع في مناطق التيه، مستلقيًا لساعات طوال على السرير في شقة ضيقة، في الأشهر التي تلت مباشرة وفاة بيرْناردو.

وبحزن سأتأكد عند الوداع، بعد ساعة، عند نهاية الغداء البطيء، على مائدة يترأسها والدي ونتقاسمها مع بعض أبناء العم والأعمام، أنني قد تصرفت بشيء من الفظاظة، أردّ بخجل على عناق والدي وقبلات أمي بتأثر شبه منطفئ، رغم ذلك الحادث المشؤوم الذي حوّلني إلى الأبد إلى ابنهما الوحيد. ظننتُ، على سبيل التبرير، أن قَدَر دوري العائلي الجديد قد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أضعف أبسط حركاتي، مثل واحد من تلك الفيروسات التي تهاجم العضلات وتترك الوجوه من دون تعبير.

نظرتُ إلى الساعة. لم يعد يفصلنا كثير من الوقت لنخرج إلى حيث كانت سيسيلْيا، أم خيمينا، التي أرادت أن تخصص تلك الليلة الأخيرة لتدعونا كي نتناول الطعام في بيتها. سنكون نحن الثلاثة وحدنا، ورغم أنني كنت أود أن أبقى في البيت وأشعل التلفاز حتى أفقد الوعي، علمتُ أنه كان علينا أن نذهب. قد يتعلق الأمر بحفلة خاصة، لا يشارك فيها أحد غيرنا. ذلك النوع من الوداع غير الواثق، بجمل جاهزة وعاطفية، لا تخلو من البكاء والعناق الطويل، والقلق المتبادل بسب الفراق والهلع المكتوم بسبب حادث قد يقع في بلاد بعيدة.

Telegram:@mbooks90

إن سيسيلْيا، تأكدتُ، قد تحتفظ لنا بمفاجأة ولن يتعلق الأمر باستعراض تافه. لم تكن تعوزها الدوافع. ليس فقط، بالنظر إلى الدور الذي كنتُ ألعبه، أنني لم أكمل ثلاث سنوات كصهر عوّضَ بيرْناردو، بل لأن خيمينا كانت ابنتها الوحيدة في بوغوطا. أما ابناها الآخران فكانا يعيشان ويشتغلان منذ عدة أعوام في كيطو. ترمّلت سيسيلْيا عندما كان الابن الأكبر يراوح سن العاشرة، ولم تفارق أبدًا لمدة طويلة خيمينا، البنت الصغرى ذات الثلاث سنوات. بعد نهاية دروسها الجامعية،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذهبت خيمينا في رحلة لبضعة أشهر إلى أوروبا رفقة بيرْناردو، وخلال الفترة التي كانت تنتمي فيها إلى الجوقة الموسيقية بالكاد غادرت بوغوطا.

*

بودّي أن أكون قد وصلتُ إلى الجهة الأخرى، فكّرتُ وأنا أشعر بارتعاشة خفيفة. أن أتأمل لأول مرة التلاوين المدهشة لضوء خريف في قمته، وأتفادى هكذا ذلك اللقاء الحميمي عن قصد، ذلك الاختبار النهائي المحدد سلفًا، حيث، بكل تأكيد، ستطفو مرارت وخيبات طالما ظلت نائمة.

قرّرتُ أن آخذ حمامًا سريعًا. من الرواق سمعتُ خيمينا وابنة عمي ميرْسيديسْ تتحدثان في الغرفة الرئيسية. سوف تؤجر ميرْسيديس شقتنا المفروشة أثناء وجودنا في الخارج. قبل أن أنتقل إلى الحمام دخلتُ لحظة إلى غرفة المكتب. فتشتُ غير واثق توزيع الأشياء التي كنتُ أتركها هناك، في نظام على حالها منذ أيام الرحيل، عندما قمت أنا وخيمينا بأولى خطواتنا الجدية، بعد أن تقوى حبنا وهدأت شكوكنا نوعًا ما. لم يكن في الغرفة ما يؤشر على وقوع وشيك لتغيير جذري. نفس زاوية المصباح فوق المكتب، خِزانة الأرشيف الممتلئة بالتصاميم والمشروعات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأولية، جدار الكُتُب، أريكة القراءة، النسخ الأربعة لفيلات بالاديو(02)، التي اقتناها أخي عند أحد تجار العاديات بمناسبة حصولي على شهادة مهندس فظننتُ أنني وجدتُ فيها على الفور الإلهام الهندسي لمشروعاتي المستقبلية. مشروعات كان من بينها، عندما فتحت مكتبي الخاص، ذلك المنزل الذي سأشيده لهما، هو وخيمينا.

خلال عدة ليال، ونحن نقتسم نفس النشوة العاطفية، كنا نُرَكّب ونُفكّك مع بيرْنارْدو تصميم ذلك الملجأ الأساسي حيث كان هو وحده يريد أن يتوفر على ما يكفي من الفضاء ليضع فيه بيانو من النوع الكبير. كنتُ إنسانًا حالمًا أتكلم لغة تكاد تكون رُؤْويةّ، أتقدم عبر الممرات الخيالية لذلك البيت، مقتنعًا، مثل بالادْيو، بالنماذج العليا للرياضيات الفضائية، والبنيات المثالية، وشروط تناظرات هندسية مطلقة لكل نافذة ولكل باب، فتخيلتُ، بطموح حقيقي، أنني كنت بصدد تشييد منزل ربما يكون قد حلم به أي ساكن ذات مرة. بيتٌ لا يغادره المرء أبدًا، كما قال أخي في ذلك المساء يوم راجعنا لآخر مرة التصاميم والمجسمات، شهورًا قبل ذلك الحادث المشؤوم قرب قرطاجنة، حيث بعد لفة بلهاء وممنوعة قام سكيرٌ شبه نائم بإرسال سيارته، دون أي اعتبار، إلى حافة طريق قاتل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رغم أنني أقسمت سرًا مع نفسي ألا أحمل معي إلى نيويورك شيئًا ليس ضروريًا في الحقيقة، وألا نثقل أنفسنا بأي صابورة ثقيلة، بحثتُ مرة أخرى عن تصاميم المنزل. كما حدث لي مع الأمراض التي أبيتُ أن أذكرها ثانية، كنت أحتفظ في الأرشيف بتلك الرسومات والخطاطات وسط كل شيء، أضعها في ركن من أركان النسيان المزيف، في تسلية أبتكرها ذريعة للحكمة.

أغلقتُ الباب بعناية، وحينئذ تملّكني خوفُ استذكاري من الماضي، فأدركتُ أنني كنتُ على وشك أن أُخرج من القبر نهائيًا شبحًا من الأشباح، وأستبق نوايا سيسيلْيا الممكنة والمتعلقة بالساعات القادمة. شبحٌ، فكرتُ، وأنا أُراكِمُ ملفات ودفاتر على الجانب، رسول قلق إبداعي انغمستُ فيه ولم أر فيه أملًا خلال عدة سنوات، منهمكًا دون اهتمام في هندسة معمارية رخيصة وعملية، أتكأ على مشاريع اعتباطية شبه مقرصنة تغزو المدينة. لم أدْر، كما فكرتُ قبل دقائق، إن كنتُ سأكون مستعدًا لأستقبله أثناء هذه الليلة الأخيرة في بوغوطا، حيث كنا طفلين، وحيث، بسبب سخاء زائف من القَدَر، وهو نفس القَدَر الذي سيفرض التغيير النهائي لموته، أُغرمتْ بنا معًا نفس المرأة. لأننا كنا نشارك في مصيبة متشابهة، ولأننا، ربما، نتربص بنفس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العزاء، اكتشفتُ أنا وخيمينا، بعد سنة طويلة على الحادث، بشيء من القلق والدهشة، أنه بإمكاننا نحن أيضًا أن نحب بعضنا.

لمدة بضع دقائق شككتُ في أنه بإمكاني أن أعثر على التصاميم. لكن، بما أنني لا أذكر أنني ألقيتها في القمامة، تابعت البحث، منتبهًا إلى الأصوات القادمة من الرواق، وأصوات النساء، لأنني لم أكن أرغب في أن تجدني خيمينا جاثيًا على ركبتيّ قبالة خزانة الأرشيف، أنبش في أحزان الماضي التي كلفتنا معًا جهدًا كبيرًا كي نبعدها عنا، والتي، مع ذلك، عند أدنى غفلة منا، كانت تعود باندفاع مستعاد. بالنسبة لسيسيلْيا كما هي الحال بالنسبة لأمي، مثلًا، كان هذا التنويع في عائلتهما يقترب من وهاد الأسى، وظلال الخيانة، إذ، كما في ألبوم، كانت الصورة التي ما زالت تشد رغبتهم في السر، طبيعية لا إمكانية لاستبدالها في المستقبل، هي ذلك الزواج المزعوم بين خيمينا وبيرْناردو.

عندما تعرّفتُ، أخيرًا، على الخطوط المنحرفة، والنوافذ غير المتوقعة، والزوايا الجريئة التي رسمتُها بيدي وأنا شاب، فكرتُ، وأنا سعيد لأرى من جديد منظورات لعوبة امّحت من ذهني خلال عدة سنوات، أنني فقط كنتُ أريد أن أحمي تلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأشكال من تقلبات الجو، ومن بقع الشمس والغبار، كمن يحفظ رغبة عارمة، لكنها هشّة ونجولة. لففْتُ التصاميم العشرة أو الاثني عشر التي وجدتُها وبرعشة خفيفة في اليدين ووضعتها في أنبوب.

في الحمّام، فكرتُ مرة أخرى وقد أدهشتني سرعة تكرار الحماس، أنه في تلك المدينة الأخرى، رمز عالمي لوفرة المعمار حيث كان ينتظرني الخمول الهادئ، قد أستعيد فعلًا ذلك الحماس الماضي والفاشل في تصميم وتشييد البناء المثالي، وبأقل رغبة، أشرع في ترميم ذلك اللقاء الفني الذي ظننتُ مرة أنه يربطني بالعالم. حوارٌ، كذلك الذي كان مع خيمينا، تعلمته من أخي الذي رأيتُه منذ كان صغيرًا وهو يتقدم، دون تعثرات واضحة، نحو الهدف في بلوغ المهارة أمام آلة البيانو.

*

كما حدث عند وجبة الغداء في منتصف النهار مع والديّ، رأيتُ أثناء الأكل، حيث كانت سيسيلْيا، أنه ربما يكون من شبه المستحيل ألا ننفذ إلى أنفسنا. كنت آملُ، مع ذلك، لأن الأمر يتعلق بآخر اجتماع منذ مدة طويلة، أن ذلك لن يكون أكثر من استرجاع أخبار طريفة وسعيدة من الماضي البعيد،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

زمنٌ جميلٌ لم يكن أحد يخشى فيه نداءات عادية ومتوحشة من الحياة وكنّا جميعًا نتقدم، دون شكوك، في الحلم الذهبي لعائلة كاملة، في تناغم اختارته لنا الإرادة الرؤوف لإله وصي يرعانا.

وَهْمٌ ليلة هادئة، مع لحظات حزن معتدلة، سيطرَ عليّ للحظات فكنتُ على وشك أن أطلب من خيمينا، وهي تصفف شعرها بجانبي أمام مرآة الحمام، أنه إذا ما تحدثنا عن بيرْناردو، فينبغي أن نضعه فقط في مشاهد تلك الفترة الاستثنائية، ونجعله يستقر في ذلك الشباب المشاغب والسعيد، الذي سبقه، وسبق حياتنا معًا، يوم كان يروقه أن يزرع الرعشة، دون إذن ولا سابق إنذار، في أي تجمع عائلي بواسطة متآلفات مبالغ فيها لراشْمانينوفْ أو آلْكان أو يلعب فقط على ملامس البيانو، فيضل بعيدًا عن العالم لعدة ساعات، بنفس عذوبة فاتْز واليرْ، العزيز على نفسه والذي فتح له الباب الأول والنهائي نحو خيمينا. على أي، قد يكون من الصعب جدًا توضيح التكهنات حول الساعات القادمة من تلك الليلة.

كانَ الصمتُ ويدُ خيمينا الباردة والعرقانة في سيارة الأجرة التي كانت تقلنا إلى حيث سيسيلْيا، كأنهما يؤكدان الشكوك بأنه في تلك الليلة، كما لم يحدث في أي ليلة أخرى من قبل، قد نعاين الدعوة النهائية ليس فقط لشبح بيرْناردو التائه بل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لذلك الذي نشأ بيني وبين خيمينا، فكان شبيهاً بابنٍ لا وجه له قد يستعمل أي خداع سحري ومفرط. هكذا، وأنا أنظر إلى صورة خيمينا في ظلام الغرفة، تملّكني مرة أخرى الاقتناع الخفي بأنه أثناء المأدبة التي حضَّرتْها سيسيلْيا سيبرزُ، بقوة ومن ضباب الحنين، شبح ضيف يحافظ على مواعيده قد يبحث لنفسه عن مكان بيني وبين المرأتيْن، كي يتابع ذلك التواصل المنقطع بطريقة مفاجئة مع حياته السابقة، والهاربة مثل علامة من علامات السماء.

بكل تأكيد، سيجلسُ الشبح متحدّيًا، مع الامتياز المسترجع بأن يعوضني ثم، مثل حفرية تخضع لمفعول جيولوجي بطيء لا يُدرك، قد يخرج من جديد إلى الأضواء بأشكال وجهه الأصلية، بمظهر متعجرف، شبه متهكم كأنه أمْردٌ عشقته كلاهما عشقًا كبيرًا، وقد أبقى أنا أمامه، رغم أن وجهي يحمل نفس العلامات، كأنني مجرد مُسودّة ضائعة لا شكل لها.

وحتى أخفف من المخاوف ولا أصيب خيمينا بعدوى غير مجدية، أعزيْتُ تلك الافتراضات، مرة أخرى، إلى ما يسبق عادة أي رحلة طويلة، وأي شكل من أشكال الهروب من دون عودة ممكنة. وليس غريبًا أنه بالإضافة إلى قلة النيكوتين كان هناك الخوف الدفين من الطائرات أو الهاجس المستمر،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في بلد ما زالوا يطبقون فيه علينا صورة المجرم المفترض التي لا غبار عليها. قد يكون مسليًا، فكرتُ وأنا أبحث عن يد خيمينا أنه، بما أنني لا أذهب في مهمة محدد، قد يقررون وضعي في طائرة أخرى ويرسلونني من جديد إلى بوغوطا.

*

حين دخلنا، كانت المرأة التي تساعد سيسيلْيا في أشغال البيت تنتهي من تحضير مائدة غرفة الأكل. من المطبخ كانت تنبعث رائحة سمك بالأعشاب، التي أظن أنني تعرّفتُ من بينها الصعتر وإكليل الجبل. كان طبقًا طالما حضرته في ذلك البيت. لم يكن يبدو على سيسيلْيا أدنى قلق واستقبلتنا بنفس الحماس المعهود. ومع أنني كنتُ أعرف أن سيسيلْيا، رغم ما بذلته من مجهودات، لم تستطع أن تضاعف في نفسي ذلك الحنان والدَّفْق الذي طالما أظهرتْه أمام بيرْناردو، كنتُ على وشك أن أقتنع، بشيء من الارتياح، أنه في الأشكال المتوقعة لتلك الليلة، بكل حمولاتها الدرامية المشؤومة، بأنني قد أخطأتُ. الفرحُ الذي دعتنا به سيسيلْيا لنمر إلى الصالة، والتأثرُ الذي ما فتئت تلامس به يدي خيمينا، العناقُ الذي ضمتني به إليها، كل ذلك كان يؤكد من دون شك حماقة مخاوفي. مثل أي متطيّر متسرع، كنتُ قد صنعتُ حبكة كاملة من لا شيء.

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قبل أن نشرع في الأكل، شربنا شيئًا ما. قدمتُ لخيمينا نبيذًا أبيض وحضرتُ فودْكا بالبرتقال لسيسيلْيا ولي أيضًا. ذَكَّرْنا من جديد المعهد الذي سوف تدرس فيه خيمينا، تحدثنا عن الشقة المكونة من أربع غرف التي حصلنا عليها، وعن الموقع الاستراتيجي لتنقلات خيمينا وقضاء أغراضها، كما تحدثنا عن المناخ وعن المصاريف التي تنتظرنا، وعن المتاحف، والحدائق، وعن ناطحات السحاب القديمة والمدهشة في مانهاتن.

مُتأثرًا بالاندفاع العفوي الذي كنا نحاول من خلاله أن نصف مستقبلنا القريب، كنتُ على وشك أن أضيف أنني أنا أيضا أرى، بفضل بضع ساعات من الصحو المفاجئ أمام غرفة المكتب، أن تلك الرحلة إلى نيويورك يمكن أن تعيد بناء أعمالي الضائعة. لكنني أحجمتُ على ذلك مخافة أن أُظهر، في وقت غير مناسب، نبرةً مفرطةً في الرقّة العاطفية.

حينئذ، وقد جلسنا إلى مائدة الأكل، بينما كنا ننتهي من أكل السمك والسلاطة، بعد أن اعترفت خيمينا، بتأثر واضح، بحُلمها أن تنتمي إلى رباعي موسيقي، يضم عازف بيانو قديم، وعازف ونّ، وعازف كمان جهير، وعازف كمان أوسط مع آلات قديمة تمكنها من الانغماس دون عوائق في تمارين عزف قطع لمارين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ماري (01) وتارتيني (00) ، وضعتْ سيسيلْيا الشوكة جانبًا، طأطأت رأسها وغطت وجهها بكلتا يديها. نظرتُ إلى خيمينا، وهي تحاول أن تبتلع على أسرع وجه قطعة الجزر النيِّء بين أدراسها، وأنا متضايق ليس فقط من الصمت المُهدِّد لسيسيلْيا، بل من ذلك النوع من الهمس الداخلي الذي صدر من فمي ولا يوافق خطورة المشهد.

ابتسمتْ خيمينا وأمسكت بيدي ثم سألتْ سيسيلْيا ما بها. من نبرة صوتها، ومن حركاتها وتعبيرات وجهها، بدا وكأنها تتوجه إلى طفلة مرتبكة، تتملكها المخاوف من أفكار غريبة. دون أن تجيبها، حرّكت سيسيلْيا رأسها وتنهدت بعمق. وبما أنني لا أتوفر على وسائل أحسن لفهم تلك الوضعية، تخيلتُ أن سيسيلْيا تتأسف في صمت على أن خيمينا لا تستطيع تحقيق هدفها الموسيقي في بوغوطا، وأنه، بالإضافة إلى ذلك، لن تستطيع أن تعاين التتويج الأكيد لتلك الحياة الجديدة في الحرية، وأن ترى الإنجاز الممكن والسعيد لعازفة تملك موهبة بارعة. خائفًا، خشيتُ أن تتأثر خيمينا فجأة بالسر الحزين الذي كان يُخرس أُمَّها في تلك الثواني، وأنها ستتركني لوحدي وتعانق الرؤى الخارقة لما كان بإمكانه أن يكون ولم يقع، والعالم الغريب من الأشياء الذي كان تَحَمُّلها يبدو أمرًا مستحيلًا، مثل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفاة بيرْناردو في تلك المنطقة الهشة والمتعصبة، لكنها أشياء تنتهي، رغم كل شيء، منسجمة مع الحياة.

بعد دقيقة، رفعتْ سيسيلْيا رأسها ونظرت إلينا. لم تكن تبكي، لكن عينيها كانتا تلمعان، نفس العينين النجلاوين الكستنائيتين اللتين ورثتهما خيمينا. عدّلتْ شعرها، السميك الأشيب، وبابتسامة تحاكي تلك التي أظهرتها لي خيمينا لحظات قبل ذلك، أرادت أن تعتذر. وحتى تخفف، دون شك، من مداهمة بوح غير ضروري، طلبت مني سيسيلْيا أن أصب مزيدًا من النبيذ. سحبت الأطباق وبحماس متجدّد نهضت وذهبت لتبحث في المطبخ عن عقبة خيمينا المفضلة، مُعجّن "السَّتْرَدَل" بالتفاح الأخضر والجوز.

أوحى الأكلُ لسيسيلْيا وخيمينا بإثارة فتوحاتي في مجال الطبخ المنزلي، واقترحتا مازحتيْن أن أفكر في متابعة دورس في الطبخ. كانتا مقتنعتيْن، وقد أنعشهما الكحول بعض الشيء، فلم يبد لهما من السخيف أن أصبح بعد بضع سنوات خبيرًا في أطباق هارْليم، ومزج مأكولات التايلاند أو أطباق تناسب خطتنا في الأكل السليم.

لم أعارض الأمر، لأنه كما في الإنجازات التي تصورتُها في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شرفة الشقة الصغيرة، كنتُ أثق أكثر فأكثر في مستقبل فترة طويلة من دون أخطاء لا تغفر أرى فيها نفسي مثل طفل بعادات بسيطة، متحررًا من الندم، قلبُه صاف من دون تمزق، لا حديث لي ولا نَفَس غير حديثِ ونَفَس خيمينا.

استحسنتُ استغراقَ المرأتين في ذلك المزاح، لأنه هزل رقيق يبعد أي تداخل بيني وبينهما. أرادتا أن تستمعا إلى شيء من الموسيقى فاكتشفتُ أن سيسيلْيا لم تكن تتظاهر بالفرح الذي تدنو به من خيمينا لتلامس يديها أو رأسها، كما لو أن ابنتها، عكس ما سيحدث في الصباح التالي، جاءت لتوها من سفر طويل. كما أنني لم أر شكوكًا في القناعة التي كانت تؤكد بها - وأنا أستعمل نفس كلمات أمي أثناء وجبة الغداء - أنها يمكن أن ترانا مجتمعيْن معًا، وتستطيع أن تسجل بحبور منبعث الهمّة الجامحة التي كانت تتقدم بها خيمينا، وهي في قمة جَمال كان لا يزال يلامس المعجزة بالنسبة لي.

اعتقادًا مني أنني أساهم في طرد الأرواح الشريرة، ومقتنعًا بأننا كنا فقط على بعد ساعات قليلة من التخلي أخيرًا عن التطيّر من الماضي، كنتُ قاب قرسين أو أدنى من أن أعترف لأول مرة بالاقتناع الفظيع وغير المنسج بأنه لولا موتُ أخي ما كانت خيمينا ستغرم بي أبدًا وما كنت سأعاين انكشاف عذوبتها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قط، ولا ذلك الحسن الرفيع الذي، رغم مفارقة لقائنا، عرف كيف يخفف الصخب الذي كان يجثم على قلبي أنا أيضًا. كما هي حال وعد مصير لا يرحم، كان موت بيرناردو هو نظير ذلك الإشراق الذي كان يتحقق مع قدوم خيمينا إلى حياتي؛ لأن الثمن الآخر الذي كان ينبغي دفعه، صعقة طويلة ما كنت قادرًا على أن أقوم إزاءها بأي شيء، كان هو التسكع هنا، من يدري في أي فوضى حزينة، مضطرًا لأتأمّل حياة من دون ألق كبير، فكري شبه أعرج، أعيش حياة ذلك الآخر من دون خيمينا، يستعبدني تشييد بنايات متهالكة.

وبينما أدبّر طريقة للكشف عن كل ذلك، رأيتُ سيسيلْيا تعود بسرعة وهي تحمل رزمة صغيرة من الملابس البيضاء، من قمصان صغيرة وأغراض خاصة بمولود جديد. أربكني هذه التحول المفاجئ فأدركتُ أنه لو أجبتُ على ما أعاينه من أمر مؤسف. سأفسد لا محالة ما بقي من الليل. واعيًا بتفاجئنا، وبالصمت المتوتر الذي كنت أنا وخيمينا نعاين به ملابس الكتان المُطرّزة، المعروضة فوق الأريكة مثل أثاث عروس رائع، كشفتْ سيسيلْيا، بتأثر سريع، أن الأمر يتعلق بملابس كانت ترتديها في أول أسابيعها بعد ميلادها، ثم اعترفت، وهي تنظر إليّ، كما لو أنها تبلغني سرًّا عائليًّا، أنها احتفظت بها للطفل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذي سنُقرّرُ أن يكون لنا.

تصورتُ أنه في العبارة التي أجبتُ بها على سيسيلْيا قد تكون هناك علامات حيرة بديهية، وبعد أن شكرتها ببضع جملٍ خرقاء، وتلعثم نجول ومن دون رباطة جأش، بحثتُ عن عينيْ خيمينا حتى تمدني بإشارة عما كان يحدث. لكنها في تلك اللحظة بالضبط، كانت تمرر، بتدقيق امرأة عمياء، أصابعها على سترة ذات عنق مدور بها شريط لامع عند مستوى الصدر. استنتجتُ، دون احتقار ولا حزن، أن خيمينا كانت تخضع في صمت لتكريم رهيف ومتأخر، بحميمية تتركني في الظل. من دون شك، في فحصها الدقيق، كانت خيمينا ترى العذوبة والجمال اللذين يمكن أن يدركهما ذلك الشيء الذي لم يولد بعد، وتلك الأعضاء المرتعشة التي، مع مرور الوقت، قد تمنح أحجامًا لتلك الملابس الموروثة، وكانت جزءًا لا نزاع فيه من الوعود المستحقة من حبها لبيرْناردو، ذلك القران الناقص الذي سيظل سره محظورًا عليّ، مثل الحكمة السرية لألغاز الموسيقى التي لم يدركها أحد غيرهما.

*

عندما افترقنا في الرواق المؤدي إلى الباب، قبَّلتني سيسيلْيا في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كل خد من خدّيّ، وبحركة ذكّرتني بالمباركة التي كنا نتلقاها أنا وبرْناردو، ونحن صغيران من الوالدين، مررت يدها على جبيني. حينئذ، كما حدث لي خلال ليالٍ عديدة وأنا أقف تحت نفس الضوء، أنتظر العناق الصامت بين سيسيلْيا وخيمينا، رأيتُ من جديد وجهي منعكسًا على الزجاج الذي يغطي صورة بيرْناردو. إنها صورة رُسمت بريشة قلم حبر على الورق، بوفاء مدهش لتعبيرات الفم والعينين، كانت خيمينا قد تركتها لسيسيلْيا بعد بضعة أشهر على الحادثة مثل نذر أو قربان تلقته جزاء وجودها. وللحظة، قبل أن أتحرك لأخرج، ظننتُ أنني رأيتُ، بنفس اللهفة التي داهمتني في سيارة الأجرة التي جئنا فيها، ممسكًا بيد خيمينا الباردة، أن وجهي كان يعوض، في الجهة الأخرى، وجههُ. بمعالم وجهي التي كانت تمّحي بسبب الانعكاس، وفيما يشبه لقاءً مستحيلًا، اكتشفتُ أن عينيّ كانتا تتسللان، وهُما تمتزجان، بين التفاصيل الدقيقة لوجهه، لتنتحلا هكذا، مثل شبح معكوس، نظرة شبابه التام والمتوقف إلى الأبد.

*

بعد أن نامت خيمينا ممسكة بذراعي، بينما كنتُ أتظاهر بقراءة كتاب، نهضتُ في صمت ووضعت الملابس والتصميمات في إحدى الحقائب. حينئذ، وأنا واثق من الأرق الذي ينتظرني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حتى الفجر، قررت أن أخرج من جديد إلى الشرفة. وأنا أدخن بنهم مراهق السيجارة الوحيدة التي وجدتها في قعرٍ جارور بالمطبخ، مُركّزًا نظري على ظلال الكاتدارئية من دون ضوء، اقتنعت أنه ربما تكون ادعاءً مبالغًا فيه ووهمًا يصعب التغلب عليه أن أظن بأنه في تلك المدينة ستجد عيناي، أخيرًا، كما يحدث عندما تنجلي مرآة مغشاة، التقاسيم الحميمية التي لم أتمكن قط من فك شفراتها، الوحيدة التي كانت من نصيبي - دون تكرار خادع، ودون تشويش من انعكاس بديل، لشبح تربطني به قرابة الدم يستحوذ على خصائص روحي، وعلى بقايا الحب الرائع الذي خصّتني به خيمينا، من حيث لا تعلم، لوحدي أنا فقط.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكتابة ليلًا (ختام)

عندما توقف غييرْمو عند أحد محلات بيع الورود أمام مدخل المقبرة، تخيلتُ أنه فعل ذلك ليأخذ باقة عاشق إلى أمي. لكنه، حين صعد ثانية إلى سيارة جيب، سألني فجأة إن لم يكن يزعجني أن أرافقه إلى داخل المقبرة حتى يقوم بزيارة قصيرة. قلتُ له إنه لا إشكال في الأمر، وأخذتُ منه تلك الباقة من أزهار القرنفل الوردية والحمراء التي اقتناها للتو. كانت أزهارًا غير نضرة وتفوح منها رائحة مبيد قوية. أخفيتُ دهشتي، لأنه لم يسبق لي قط أن زرتُ المقابر، ومجرد فكرة دعوتي لزيارة ميت لا أعرفه، كانت مناسبة غريبة وبعيدة الاحتمال.

تقدمنا عبر طريق ضيقة، مليئة بالتموجات والحُفر، بمحاذاة ضفة مجرى مياه آسنة. وقبل بلوغ نهاية الطريق المشكلة من حائط من أشجار الحور، عرّج غييرمو يسارًا، نحو قوس بُنِيَ بطوب مصبوغ بالأبيض وسياج حديدي كبير، يشبه مدخل نادٍ من النوادي الاجتماعية المتاخمة لهذه الأراضي. إنهما طريقتان لتزجية الوقت، فكّرتُ فجأة.

مررنا قرب كنيسة ضيقة، من دون أي جاذبية، وُضعت هناك لتؤدي وظيفة عملية بسيطة، تعلوها صورة مسيح كبيرة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رفعت عاليًا في السماء وبنيت بالإسمنت المسلح، بملامح وجه وأطراف تبدو كأنها تبحث عن نوايا مجردة وملغزة. كان غييرمو يقود السيارة ببطء، مركزًا على الطريق التي تتفرع نحو الأمام إلى عدة دروب أكثر فأكثر ضيقًا وانكسارًا. شعرتُ أنه كان عليَّ أن ألزم الصمت، محاولًا ألا أقوم بأي حركة مفاجئة، وأنا أمسك الباقة بحزم، غير متأكد تمامًا إن كان علي أن أتظاهر بشيء من الحزن. كنتُ أعرف عن طريق أمي أن غييرمو كان رجلًا أرمل فخمنتُ أننا جئنا بحثًا عن كوّة زوجته. بعد عدة دورات ركن سيارة الجيب قرب طريق خاصة بالراجلين تحت ظل بعض أشجار كبيرة.

Telegram:@mbooks90

ـ سأعود بسرعة ـ قال وهو يترجّل من السيارة.

ـ حسنًا. سوف أنتظرك هنا.

أغلق الباب بلطف ثم رأيته يبتعد. مشى خلال بضع ثوان وسط بعض الشواهد وباقات الأزهار فوق الأرضية غير المستوية، مغيرًا الاتجاه أكثر من مرة، كما لو أنه نسي المكان الدقيق للقبر الذي يبحث عنه. ربما لم يأت منذ وقت طويل، ونظرًا لخطواته غير الواثقة ورأسه المنحني نحو الأسفل والأزهار في يده، فكرتُ في عاشق يصلُ متأخرًا إلى موعد غرامي. لا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أدري لماذا شعرتُ بالخجل وأنا أتابع من نافذة سيارة الجيب ضَلالَهُ ولم أنزل لأساعده كي يتعرف على الكوّة. لكن الأمر، طبعاً، يتعلق بمهمة انفرادية من الأفضل تأملها عن بعد. بالإضافة إلى هذا، ورغم أن صداقتنا قد ازداد دفئُها منذ عودتي إلى بوغوطا، قبل ستة أشهر، لم أكن قد تعودت بعد على تعويضه التدريجي لوالدي، وتكيفه المضطرد والمتين داخل حدود منزل والدتي وغرفتها.

عندما وجد القبر في النهاية، أخرج منه غييرمو وعاءً حديديًّا وُضِعَ عند المقدمة، وبداخله قطع أزهار جافة وملتوية. مشى بحزم متجدد نحو صندوق القمامة وعاد يحمل ماءً صافياً. جاثياً على ركبتيه فوق العشب، عدّل بخجل يفوق دقة حركاته، أزهار القرنفل التي اشتراها للتو. وقف ثم شبك يديه خلف ظهره. رفع رأسه حتى تكون الشمس قبالة وجهه ثم فحص بعناية، بعد ذلك، المستطيل الأسود لشاهدة القبر، تلك البوابة الظاهرة المؤدية إلى جغرافيا سفلية حيث تتحرك الآن، دون أن نتوقف عن الاضطراب، ذكرى حضور سابق وضروري.

ترجَّلتُ من سيارة الجيب، وأخذتُ بدوري أمشي عبر المرج، في الاتجاه المعاكس للمكان الذي كان فيه غييرمو. ربما لأن اليوم كان وسط الأسبوع، بالكاد كان هناك زوار من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حولنا، وكثير من الشواهد كانت تحمل تواريخ وأسماء نصف ممحوة. حينئذ، بدا لي أن المشهد الذي بدأتُ أراه في الخارج، تحت ضوء الشمس الساطعة الذي يُمدّد ظلال الأشجار، وحركات الطيور المفاجئة وسط الأزهار فوق الأرضية، والريح - التي تصورتها جديدة لما تحدثه من أصوات وسط الأغصان والامتداد المفتوح للأرض - كان غريباً عن التماثل الذي ينبغي أن نحتفظ به تجاه الأموات. بحثتُ عن غييرمو بعينيّ فرأيتُ أنه مازال جامداً، كما لو أنه لا يعرف كيف يودع ويعود أدراجه.

هل يفكر في المصائب، المستحقة أو غير المستحقة، التي رافقت ذلك الآخر الذي لم يتبق له منه الآن غير الاسم؟ هل يكون قد اطلع في النهاية على سر خفي؟ أم خيانة أم ظلم في حقه؟ مشيتُ خطوات أخرى، على غير هدى، وأنا أخمّن عمر ومدة حياة كلٍ واحد من الأسماء التي أصادفها في طريقي، فلاحَ لي موضوعٌ محتمل يمكن أن أختم به وأنهي، أخيراً، تلك الرسالة التي كنتُ أكتبها إلى تينا خلال الليالي الأخيرة: المجهود الرائع، رغم أنه يبدو غامضاً، في مواصلة حب كائن هرب من الحياة، لن نلتقي به أبداً مرة أخرى، أو أنه إن كان يحوم هناك، قد لا يعرف كيف يُعبّر عن نفسه.

تذكرتُ أنه، بعد بضعة أيام على وصولي، كشفت لي أمي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أو بأي [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الأشياء [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الغريبة في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] برعاية [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] لم أعرف إن كان الزمن [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] غير منتظرة في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] جذور نباتات السحلبة والقصبة [illegible] [illegible] [illegible] إلى عروق الأوراق والسيقان مثل [illegible] [illegible] [illegible] الفرح والحبور والخوف التي ملأت قلبه ورأسه في السنوات الأخيرة، ومتفاديا بذلك أن تحملني إلى الأبد.

تحركت ورقات ساقطة على يساري، وحين رفعت عيني ثانية شعرت أن ضوء الشمس لم يعد يتقدم، بما أنني لم أر على الفور سيارة الجيب ولا غييرمو، انتابني إحساس مادي، ومهدد، مع شيء من الدوار، بأنني وقعت في شراك داخل حدود نقطة لم يعد فيها للزمن وجود. وكنت، هناك، عند أسفل مرج وعر وجاف، حيث لن تحدث أشياء ولن تكون هناك وسيلة لاختيارها، لما قد يكون خيراً أو شراً. عندما تمكنت من التحرك، مشيت بسرعة كي أخرج في أسرع وقت ممكن من العشب، مثل ذلك الآخر الذي هرب من شراك غابة مظلمة.

كان غييرمو قد وصل وظل ينتظرني في سيارة الجيب، وحين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استأنفنا طريقنا نحو بوغوطا، طلبتُ منه أن يتركني عند المتجر الكبير على بعد بضعة أمتار من الشقة. ومن هناك وحتى نهاية الرحلة لزمنا الصمت. بعد ذلك، عند منتصف الليل تقريبًا، تخليتُ عن الفقرة التي فكرتُ أن أختم بها رسالتي إلى تينا، لأنني لم أعرف كيف أحرر كل ما تخيلته خلال جولتي القصيرة في المقبرة. كنتُ أشرع في الكتابة ثم أنتهي حتمًا بجمل مبتذلة، لها نبرة وبلاغة تبدو لي غير صادقة. وأنا ملفوفٌ وسط الأغطية وكل الأضواء مطفأة، توصلتُ إلى قناعة مجنونة لكنها جلية بأنني لم أكن خلال تلك الظهيرة سوى في حقبة بعيدة، في توقف خفي للأيام وفي إحداثيات بعد من الأبعاد يستحيل تحديد موقعه، عندما كنتُ شاهدًا على هدية غييرمو الصامتة.

Telegram: @mbooks90

بوغوطا، 2013-1997.

---

(10) تحمل هذه القصة عنوانًا باللغة اللاتينية هو (Judex)، وتعني هذه الكلمة القاضي أو المُنصف. كما أن هذا العنوان في حد ذاته إحالة على فيلم فرسي - إيطالي، يحمل العنوان نفسه، أخرجه جورج فرانْجو سنة 1963. (المترجم)

(09) كاتب، وفنان، ومخرج سينمائي من أستراليا. (المترجم)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(08) كاتب أدب أطفال من كندا. (المترجم)

(07) طرح عالم الرياضيات الألماني كريستيان غولدباخ عام سنة 1742 مسألة معقدة ما تزال غير محلولة في نظرية الأعداد والرياضيات ككل. وتعرف هذه المسألة بحدس غولدباخ. (المترجم)

(06) نظرية النقصان هي عبارة عن مبرهنتيْن رياضيتيْن تبينان نقصان أي نسق بديهي شكلي يمكن أن يعدّل حسابًا أساسيًا. (المترجم)

(05) "الجغرافي" هو اسم لوحة للفنان الفلمنكي يوهانس فيرمير، رسمها سنة 1669. (المترجم)

(04) قطعة موسيقية كلاسيكية من تأليف يوهان سيباستيان باخ. ارتبطت لدى علماء النفس بقدرتها على جلب النوم والحد من الأرق. (المترجم)

(03) توجد ألواح سانغاكو في المعابد اليابانية وتمثل ألغازًا رياضية وهندسية من وضع أقليدس. (المترجم)

(02) أندريا بالاديو (1508-1580) مهندس ومصمم معماري إيطالي من مدينة البندقية. كان يستوحي نماذجه من الفن الروماني وخلّف تأثيرًا كبيرًا في الهندسة الغربية. (المترجم)

(01) مؤلف موسيقي وعازف كمان فرنسي من القرن السابع عشر. (المترجم)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(00)عازف كمان ومؤلف موسيقي إيطالي من القرن السابع عشر. (المترجم)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

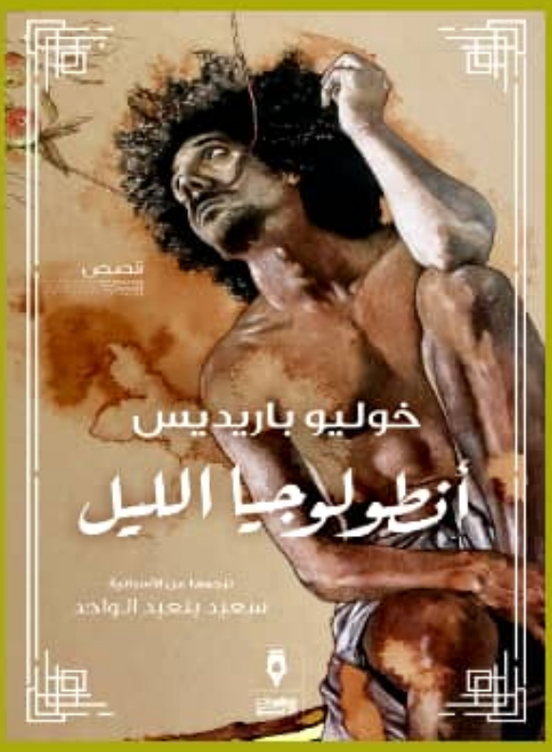

تم الرفع بواسطة:

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner